الفصل الأول :التناص

(علاقةالنص الشعري بالتراث)

-1-

مصطلح التناص *Intertexte* مصطلح أول من أطلقته جوليا كريستيفا *J.Kristeva* عام 1966م ، للتعبير عن العلاقة بين نص أدبى وغيره من النصوص ، وقد رأت أن النص إنتاجية وترحال للنصوص وتداخل نصى ، ففي فضاء نص معين ، تتقاطع ملفوظات مقتطعة من نصوص أخرى ، بواسطة الامتصاص والتحويل ،وهذا المصطلح يركز على التفاعلية الإيجابية بين النصوص الأدبية ، أو التى يحيل إليها في فضاء النصوص الخارجية، 4واستخدمت مصلح (الإديولوجيم) الذى يعنى تلك الوظيفة للتداخل النصى، ورأت كريستيفا ما أطلقت عليه التناصية ، هى تشكل كلى نصى ،وكل نص هو امتصاص لنص آخر ، أو تحويل عنه ، وكانت كريستيفا قد اعتمدت على مفهوم الحوارية عند باختين *M.Bakhtine* عام (1929)حيث رأى ضرورة قراءة خطاب الآخر والأنا ، والعلاقات الحوارية هي علاقات دلالية بين جميع التعبيرات التى تقع ضمن دائرة التواصل اللفظى ، وركز لوران جينى *Laurent Jenny* في شرحه أنماط التناص وتفاعل النصوص على الهضم والتحويل ،والنص الذى تشرب عددا من النصوص مع بقائه ممركزا بمعنى [1]، وعند رولان بارت *R. Barthes* كل نص ليس إلا نسيجا جديدا من استشهادات سابقة ، وكل نص ليس إلا تناصا لنص آخر، وقد اختلط بين النقاد مصطلحا التناص والتلاص *Plagiarism* ،فالتناص اعتماد النص على

1 - راجع : عز الدين المناصرة : علم التناص المقارن نحو منهج عنكبوتى تفاعلى ، ط .دار مجدلاوى للنشر والتوزيع ، عمان الأردن عام 2006. ص140.

obeikan.com

التقليد والنقل والإخفاء من النصوص الأخرى ،وبذلك يقوم على التفاعلية وهو أعلى درجة ، أما الحد الأدنى فهو التلاص الذى يقوم على التقليد والنقل ، وحدد جيرار جينيت *Gerard Genette* **صور التناص في خمس صور** :

1-علاقة حضور مشترك بين نصين ، وعدد من النصوص بطريقة استحضارية وهى في أغلب الأحيان الحضور الفعلى لنص في نص آخر مثل (الاقتباس).

2-العلاقة التى يقيمها النص في الكل الذى يشكله العمل الأدبى ، مع ما يمكن أن نسميه الملحق النصى،نراه في (العنوان – العنوان الصغير – العناوين المشتركة – المدخل – الملحق – التنبيه – التمهيد – الخطوط – الرسوم ...إلخ)

3-الماورائة النصية، وهى العلاقة التى شاعت(الشرح) الذى يجمع نصا ما بنص آخر ، يتحدث عنه دون أن يذكره بالضرورة بل يذكره بالضرورة بل دون تسميه .

4-الجامعية الناصية : والمقصود هنا علاقة خرساء تماما ، ولا تظهر في أحسن حالاتها إلا عبر ملحق نصى ، أو هو في غالب الأحيان مثبت جزئى كما في التسميات : (رواية ، قصة ، قصائد ..إلخ)

5- الاتساعية النصية: ويقصد به كل علاقة نصية توحد نصا (B النص الثانى يطلق عليه النص المتسع) بنص سابق (A يطلق عليه النص المنحسر) وينشب النص المتسع أظفاره بالنص المنحسر ، دون أن تكون العلاقة ضربا من الشرح[1].

وعند محمد بنيس نقسيم التناص كالآتى:

1- الاجترار : حيث تعامل الشعراء في عصور الانحطاط مع النص الغائب بوعى سكونى ، وأصبح النص الغائب نموذجا جامدا، تضمحل هويته مع إعادة كتابة له بوعى سكونى .

---

1 - راجع : م. نفسه ص148.

2- الامتصـــاص : مرحلة أعلى في قراءة النص الغائب ، وهو القانون الذى ينطلق منه أساس أهمية هذا النص وقداسته ، فالامتصاص لا يجمد النص الغائب ولا ينقده ، فهو يعيد صوغه فقط وفق متطلبات تاريخية ، لم يكن يعيشها في المرحلة التى كتب فيها.

3- الحوار : أعلى مستوى من قراءة النص الغائب ، إذ يعتمد النقد المؤسس على أرضية علمية صلبة ، تحطم مظاهر الاستلاب ، مهما كان نوعه وشكله وحجمه ، لا مجال لتقديس كل النصوص الغائبة مع الحوار ، فالشاعر لا يتأمل النص ، بل يغيره وبذلك يكون الحوار قراءة نقدية علمية[1].

ويطلق الدارسون على التناص تسميات متعددة (معمارية النص - التعالى النصى – التعالق النصى – تفاعل النصوص – النص الغائب ...إلخ) ونحن نفضل مصطلح التفاعل النصى ، **ويقسم التفاعل النصى في هذه المستويات** :

- المنـــاص : بنية نصية متضمنة في النص كما هى ، وتأتى هذه البنية مجاورة للبنية النصية في النص الأدبى ، بحيث يمكن تمييز بدايتها ونهايتها .
- المتناص : بنية نصية محولة ومتداخلة مع بنية أخرى ،بحيث لا يمكن فصل إحدى البنيتين عن الأخرى .
- الميتانص: بنية نصية يعلق بواستطها النص السابق في النص اللاحق ، وتأتى البنية النصية في النص مستقلة ، يقيمها المبدع مع النص في علاقة نقدية [2].
- ويصور مصطلح (التناص) علاقة شعراء مدرسة الإحياء بالتراث، لأنه كما مر بنا أن هذه المدرسة الشعرية تقوم على محاكاة النص التراثى والنسج على منواله ،وتقليديه في الأداء والصياغة .

---

1 - راجع : م . نفسه ص157:158.

2 - راجع : سعيد يقطين : انفتاح النص الروائى ، ط 1 المركز الثقافى العربى ، الدار البيضاء عام 1989ص100 وما بعدها .

-2-

استيحاء الروح الشعرية القديمة وتمثل الشعر العربى في صورته المشرقة نجدها في أشعار مدرسة الإحياء ،مع اختلاف صور ودرجات هذا التمثل من شاعر لآخر، وهذا هو النوع الأول من التناص عند جيرار جينيت علاقة حضور مشترك بين نصين، وعدد من النصوص بطريقة استحضارية ، وهو النوع الأول عند محمد بنيس الذى يطلق عليه الاجترار(حيث تعامل الشعراء في عصور الانحطاط مع النص الغائب بوعى سكونى ، وأصبح النص الغائب نموذجا جامدا، تضمحل هويته مع إعادة كتابة له بوعى سكونى).

هذا الاستيحاء نجده عند شعراء مدرسة الإحياء قاطبة ،بداية من البارودى وحافظ وشوقى والجارم والكاشف ،والرصافي ... وغيرهم ، حيث النقل الآلى للألفاظ والمعانى والصور التراثية بهيئتها التراثية ، بل وبشكل القصيدة القديمة من حيث بنائها الفنى ، **وقد اعترف البارودى صراحة بذلك فقال** :

تكلمت كالماضين قبلى بما جرت ... به عادة الإنسان أن يتكلما

فلا يعتمدنى بالإساءة غافل ... فلابد لابن الأيك أن يترنما[1]

و أكد منهجه المحاكى للتراث القديم في قوله :

وإليك من حوك اللسان حبيرة ... يغنيك رونقها عن التشبيب

حضرية الأنساب إلا أنها ... بدوية في الطبع والتركيب [2]

---

1 - ديوان البارودى (محمود سامى بك البارودى) تحقيق وتصحيح وضبط وشرح محمد شفيق معروف ط دار المعارف عام 1972، ج3 ص 396.

2 - ديوان البارودى (محمود سامى بك البارودى) تحقيق وتصحيح وضبط وشرح على الجارم ومحمد شفيق معروف ط دار المعارف عام 1971ج1 ص246.

وقال حافظ متحسرا على الالتزام بالنهج التراثى شكلا وأداء ، **في شعر بطبعه السخريةَ**:

ملأنـــا طبـــاق الأرض وجـــدا ولوعـــة بهنـــد ودعـــد والربـــاب وبـــوزع
وملّـــت بنـــات الشـــعر منـــا مواقفـــا بســـقط اللـــوى والـــرقمتين ولعلـــع
تغـــيرت الـــدنيا وقـــد كـــان أهلـــها يـــرون متـــون العـــيس ألـــين مضـــجع
وكـــان بريـــد العلـــم عـــيرا وأينقـــا متـــى يعيهـــا الإيجـــاف في البيـــد تظلـــع
فأصـــبح لا يرضـــى البخـــار مطيـــة ولا السلـــــك في تيـــــاره المتـــــدفع
ونحـــن كمـــا غنـــى الأوائـــل لم نـــزل نغنـــــى بأرمـــــاح وبيـــــض وأدرع

عرفنا مدى الشيء القديم فهل مدىلشيء جديد حاضرالنفع ممتع؟![1]

غير أن هذا الإحساس عند كثير منهم لا يتجاوز التعبير بالمخترعات الحديثة بما يشبهها في تراثنا القديم ، فالقطار يشبه الناقة، والدبابة عند شوقى تشبه الحوت ، والطائرة عند شوقى تشبه العقاب ، **يقول شوقى عن الطيارة** :

أعقـــــاب في عنـــــان الجـــــو لاح أم ســحاب فــر مــن هــوج الريــاح
أم بســـاط الـــريح ردتـــه النـــوى بعـــد مـــا طـــاف في الـــدهر وســـاح
أو كـــأن الـــبرج ألقـــى حوتـــه فترامى في السموات الفساح ...إلخ[2]

يقول د . أحمد هيكل عن استيحاء هؤلاء الشعراء لروح التراث " على أن الشاعر من أصحاب هذا الاتجاه كان يتخذ من العالم العربى القديم عالما مثاليا، يفيق له قلبه ، ويهيم به خياله ، لأنه عالم الآباء الأماجد والتاريخ العريق ، والدولة الإسلامية الغالية ، ومن هنا كان يستمد الشاعر كثيرا من صورة هذا العالم ، بل

1 - ديوان حافظ إبراهيم ط دار الكتب المصرية عام 1939 ج1 ص 129:130.
2 - الشوقيات شرح وتعليق د. يحيى شامى ط . دار الفكر العربى بيروت ط 1 عام 1996ج 1 ص159.

يجمع بعض الألوان والخطوط من الصحراء ، فيرسم خيامها وكثبانها ، ويتغنى بهند وأسماء والرباب، ويبكى الرسوم والأطلال ، ويذكر أماكن تعود ذكرها الشاعر القديم كالعقيق ونجد ، ويشبه الحبيبة بنفس طريقة ذاك الشاعر القديم ، فيجعل قوامها غصنا ،وإشراقها بدرا ، ونفرتها ظبية ،ويتخذ الشاعر من أصحاب الاتجاه المحافظ ذلك كله رمزا إلى صور جديدة ، وتعبيرا عن معان حديثة ، وهو - في ذلك - صادق غالبا ، إذ ا استثنينا ما يكون من رياضة القول في أول عهد التأدب ، ذلك العصر الذى كان مشدود الوجدان إلى الماضى العربى العظيم ،وإلى تراثه الجيد "[1]

وقد كان هؤلاء الشعراء يتحدثون وكأنهم يعيشون في القرون الإسلامية الأولى، بل يرجعون إلى العصر الجاهلى ، ويحيون في الصحراء بين الخيام والنخيل ، ومع العيس والآرام ، فهم يتحدثون عن أماكن، فيذكرون وادى الغضا ونحوه ، ويصفون حبيبة يعشقونها فيتصورون الظبا والمها ، وهم يسافرون فيذكرون الركائب والرحال والجمال ، ويتشوقون فيذكرون البرق الذى يلتمع ،من حيث يقيم الأحباب، ويدعون بأن يجود الغيث أماكن من إليهم يحنون ، وعلى الجملة هم بخيالهم وتصورهم يعيشون في ذاك العالم العربى القديم ، وهم لا يزالون يتخذون من هذا العالم القديم عالما مثاليا أسطوريا ، ينقلون عنه ويقتبسون منه ، ويعبرون به عن العالم الجديد الذى يعيشون فيه حتى في وصفهم للآلات العصرية نراهم يشبهونها بأشياء قديمة كوصف شوقى للسفينة ، بأنها تشبه في سيرها الناقة صعودا وهبوطا ، حتى أن طه حسين يقول لقد " أصبح من أيسر الأمور على الناقد إذا قرأ قصيدة لشوقى أو لحافظ أو لغيرهما ، أن يرد القصيدة إلى أصلها القديم

1 - د. أحمد هيكل : تطور الأدب الحديث فى مصر (من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية) ط.دار المعارف عام 1987م ،ص 63:62.

الذى أخذت منه ، أو أن يرد كل جزء من أجزاء هذه القصيدة إلى أصله الذى أخذ منه "[1]

أكثر من ذلك فقد التزم هؤلاء الشعراء بشكل وبناء القصيدة التراثية من حيث البدء بالمقدمة الطللية، والغزل ، ثم الانتقال- بحسن تخلص كما فعل الشعراء القدماء – إلى موضوع القصيدة – وكثيرا ما يكون في المديح – فعلى غرار القصيدة التراثية بدأ (البارودى) قصيدته بالغزل ، ثم انتقل إلى الفخر ، ومنه إلى وصف الفرس، **فإذا هو بطالعنا بهذه الصورة** :

ولقد هبطت الغيث يلمع نوره في كل وضاح الأسرة أغيد
تجرى به الآرام بين مناهل طابت مواردها وظل أبرد
بمضمر أرن كأن سراته بعد الحميم سبيكة من عسجد
زجل يردد في اللهاة صهيله رفعا كزمزمة الحبى المرعد
متلفتا عن جانبيه يهزه مرح الصبا كالشارب المتغرد
فإذا ثنيت له العنان وجدته يمطو كسيد الردهة المتورد [2]

فالبارودى يعيشنا في بيئة جاهلية ، وبأوصاف للبيئة والفرس كما عهد الشعراء الجاهليون ذلك ، يذكرنا بالنابغة في معلقته حين رأى بعر الآرام في عرصات الدار ، التى عفا عليها الزمن ، وفرسه الأرن في تلفته وتوثبه كالشارب المترنم ، كما شبه عنترة فرسه من قبل بهذ التشبيه ، مضيفا إلى هذا الوصف وصف امرىء طرفة بن العبد (كسيد الغضا) وبعد ذلك يحدثنا البارودى عن مغامراته التى تشبه مغامرات امرىء القيس في العصر الجاهلى ،وعمر بن أبى ربيعة في العصر الإسلامى،ويقرنها بالفخر بنفسه ، **بقول** :

1 - طه حسين : حافظ وشوقى ص 138.
2 - ديوان البارودى ج1 ص52.

بـــل رب غانيـــة طرقـــت خباءهـــا والـنجم يطـرف عـن لـواحظ أرمـد
قالـــت وقـــد نظـــرت إليّ فضـــحتنى فـارجع لشـأنك ، فالرجـال بمرصـد
فمســـحتها حتـــى اطمـــأن فؤادهـــا ونفيـــت روعتـــها بـــرأى محصـــد

وخرجت أخترق الصفوف من العـد امتلثـما والسيف يلمع في يدى

ويختـتم القصـيدة ببيـت مـن الحكمـة كقفـل للقصـيدة **على نهج القصيدة القديمة**:

يرجـو الفتـى في الـدهر طـول حياتـه ونعيمـــه ،والمـــرء غـــير مخلـــد [1]

ومن نماذج البداية بالغزل والمقدمة الطللية ، التى نستشعر فيها أننا أمام نص من الشعر القديم قوله(البارودى) **في مفتتح إحدى قصائده**:

ألا حـــى مـــن أسمـــاء رسـم المنـــازل وإن هـــى لم ترجـــع بيانـــا لســـائل
خـــلاء تعفتهـــا الـــروامس والتقـــت عليهـــا أهاضـــيب الغيـــوم الحوافـــل
فلأيـــا عرفـــت الـــدار بعـــد ترســـم أرانـــى بهـــا مـــا كـــان بـــالأمس شـــاغلى
غـــدت وهـــى مرعـــى للظباءوطالمـــا غنـــت وهـــى مـــأوى للحســـان العقائـــل
فللعـــين منهـــا بعـــد تزيـــال أهلـــها معـــارف أطـــلال ، كـــوحى الرسائـــل
فأســـبلت العينـــان فيهـــا بواكـــف من الـدمع ، يجـرى بعـد سـح بوابـل
ديـــار التـــى هاجـــت علـــى صـــبابتى وأغـــرت بقلبـــى لاعجـــات البلابـــل
من الهيف مقـلاق الوشـاحين ادة سـليمة مجـرى الـدمع ،ريا الخلاخـل إلخ [2]

فسؤال الرسم الداثر وعدم إجابته لسائله ، وانطماس معالم الرسم بعد الرحيل عنه صورة من صور الشعر العربى القديم ، حتى إنه في قوله فلأيا عرفت الـدار بعـد

1 - م . نفسه ج1 ص534.
2 - ديوان البارودى ج3ص.136وما بعدها

ترسم مأخوذ **من قول النابغة** :

فلأيا عرفت الدار بعد توهم .....إلخ .

وفي البيت الأخير يذكرنا بقول الشاعر القديم :

من الهيف لو أن الخلاخل صيرت لها وشحا لجالت عليها الخلاخل

ولا شك أن هذا الشعر لا يمثل روح عصره ، ولا الحضارة التى يعيشها ، ولكنه كان يأتى به محاكاة للقدماء، ونراه في نسيبه يعمد إلى التشبيهات القديمة المحفوظة ، فالمحبوبة تحاكى الظبى والبدر في سمائه ، وهى مهاة ، وألحاظها سيوف باترات ، وقدها غصن يتثنى إلى آخر هذه القوالب ،**يقول** :

غصن بان قد أطلع الحسن فيه بيد السحر جلنارا ووردا

ما هلال السماء ؟ ما الظبى ؟ ما الود جنيا ؟ ما الغصن إذ يتهدى؟!

هى أبهى وجها ، وأقتل ألحاظا ، وأندى خدا ، وألين قدّا [1]

وقلد البارودى شعراء الصنعة وعصور الضعف ، فأرخ في شعره كما أرخوا ، ولكن هذا نادر جدا ، كقوله حين رجوع الخديوى إسماعيل من دار الخلافة سنة 1379 **هجريا**:

رجع الخديوى لمصره وأتت طلائع نصره

وحاكى القدماء في بداوتهم وأسلوبهم وذكر ديارهم ، **يقول**:

يا سعد قل لى ، فأنت تدرى متى رعان العقيق تبدو

أشتاق نجدا وساكنيه وأين منى الغداة نجد؟ [2]

---

1 - ديوان البارودى ج . 1 ص467.

2 - ديوان البارودى ج . 1 ص532.

فالعقيق هو الوادى وكل مسيل شقه ماء السيل ، ومواضع بالمدينة والطائف واليمامة ، والمقصود هنا عقيق نجد ، ورعان جمع رَعْن (بفتح فسكون) وهو أنف يتقدم الجبل ، والشاعر يستخدم الأماكن القديمة كقيمة رمزية ، وإن كان هذا يذهب بارتباط النص بعصره ، وما ينطبق علي استعماله (البارودى) **لوادى العقيق ينسحب على استخدامه لوادى الغضى في قوله** :

أين ليالينا بوادى الغضى ذلك عهد ليته ما انقضى [1]

ولم يقلد القدماء في المقدمة الطللية فقط ، ولكن تجاوز ذلك وقلد البارودى أبا نواس عندما استبدل وصف الخمر في مقدمة القصيدة ، بدلا من الغزل : فقال (أبو نواس) **في مقدمة إحدى قصائده:**

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

---

1 - راجع القصيدة ديوان البارودى ، تحقيق وتصحيح وضبط وشرح على الجارم ومحمد شفيق معروف ط دار المعارف عام 1971ج2 ص246،ص188،ويمكن الرجوع إلى نماذج أخرى تمثل هذه الظاهرة عند البارودى منها قصيدة له كتبها للشيخ المرصفى يبدأها بالغزل المتفجع على بعد المحبوبة ، يقول :

فللشوق منى عبرة مهراقة وخبل - إذا نام الخليون – خابل

ونجده يبدأ القصيدة بالمقدمة الطللية حتى في الهجاء ، يقول هاجيا نوبار:

وصالك هجر ، وهجرك لى وصل فزدنى صدودا ما استطعت ،ولا تأل

إذ كان قربى منك بعدا عن المنى فلا حمت اللقيا ، ولا اجتمع الشمل...إلخ

(ديوان البارودى ج3 ص244) ومنه قصيدة في مدح إسماعيل بالغزل:

لعزة هذى اللاهيات النواعم تذل عزيزات النفوس الكرائم

فما كنت لولا هن تهتاجنى الصبا أصيلا ويشجينى هدير الحمائم

وبيضاء ريا الردف،مهضومة الحشا يقل ضحاها جنح أسود فاحم

(ديوان البارودى ج3 ص،280)

وقد أطال في الغزل حتى بلغ ثمانية وعشرين بيتا ، ثم بدأ بالمديح ،وعندما مدح استدعى أبيات أبى تمام في مدح أحمد بن المعتصم ، حيث قال :

تجمع فيه الحلم والبأس والندى فليس له في مجده من مزاحم

ذكاء أرسطاليس في حلم أحنف وهمة عمرو في سماحة حاتم

فهذان البيتان يستدعى فيهما قول أبى تمام في مدح أحمد بن المعتصم:

إقدام عمرو ، في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

وإن استبدل أرسطاليس بإياس ، فهذا بعيد عن التوفيق ،وأعتقد أن كلمة إياس أخف على الأذن ، وأقرب إلى وجدان القارىء العربى من أرسطاليس .(م . نفسه ص299)

وقال في مقدمة أخرى:

لاتبك ليلى ولا تطرب إلى هند

واشرب على الورد من حمراء كالورد...إلخ[1]

فلده البارودى فقال يذكر ليلة أنس بحلوان :

ما لى وللدار من "ليلى" أحييهاوقد خلت من غوانيها مغانيها

دع الديار لقوم يكلفون بها واعكف على حانة كالبدر ساقيها [2]

وإسماعيل صبرى في كثير من قصائد المديح يبدأها بالغزل ، ففي قصيدة له في مدح الخديوى إسماعيل رفعها له في عيد الأضحى ، يبدأها بخمسة عشر بيتا في الغزل يفتتحها بقوله :

سفرت فلاح لنا هلال سعود ونمى الغرام بقلبى المعمود

وجلت على العشاق روض محاسن فسقى الحياء شقائق التوريد

وبعد هذه الأبيات يمدحه ، متخلصا من الغزل إلى المديح في البيت السادس عشر، رابطا بين استلذاذه لحب المحبوبة باستلذاذه بمدح الخديوى بقوله :

ليطيب لى في حبها ذلى كما في مدح (إسماعيل) لذّ نشيدى

يقظ ، بجودة رأيه مصر زهت زهو الحلى على صدور الخود. [3]

---

1 - لم يعجب هذا الوصف الذوق العربى ،فعاد لإرضائه ،وبكى الأطلال فى مقدمة قصائده، منها قوله فى إحدى مقدمة قصائده بعد ذلك :

حى الديار إذا الزمان زمان وإذا الشباك خوى ومعان

ياحبذا سفوان من متربع ولربما حمل الهوى سفوان

وإذا مررت على الديار مسلما فلغير دار أميمة الهجران

راجع : أبا نواس(الحسن بن هانىء):ديوان أبى نواس ط دار صادر بيروت د.ت ص642:643.

2 - ديوان البارودى تحقيق وتصحيح وضبط وشرح محمد شفيق معروف ط دار المعارف عام 1974 ج4 ص 164.

3 - ديوان إسماعيل صبرى صححه وشرحه ورتبه الأستاذ أحمد الزين وجمعه حسن رفعت بك ، ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة عام 1938. ص 1:3.

وفي قصيدة أخرى يمدح فيها (الخديوى إسماعيل) يبدأ ها بالغزل في عشرة أبيات، يقول :

لا الهـــوى العـــذرى والوجـــد عـــذل عـــذولى فيـــك لا يجـــدى
إنـــى مـــع الصـــد وطـــول الجفـــا بـــاق علـــى الميثـــاق والعهـــد

وبعدها يبدأ في مديحه بقوله :

مـــن مثـــل إسماعيـــل آراؤه ثاقبـــة تهـــدى إلى الرشـــد ...إلخ [1]

ويبدأ حافظ إبراهيم قصيدة له في مدح البارودى بالغزل:

تعمـــدت قتلـــى في الهـــوى وتعمـــدا فمـــا أثمـــت عينـــى ولا لحظـــه اعتـــدى
كلانـــا لـــه عـــذر ، فعـــذرى شـــبيبتى وعـــذرك أنـــى هجـــت سـيفا مـــجردا
هوينا فما هنا كمـا هـان غيرنـا ولكننـا زدنـــا مـــع الحـــــب ســـــؤددا

ثم يمضى واصفا محبوبته ساردا مغامراته في لقائها ، إلى أن ينتقل آخر الأمر إلى التخلص من الغزل إلى المديح كما كان يفعل القدماء:

فمالـــت لتغرينـــى ومالأهـــا الهـــوى فحـــديث نفســـى والضـــــمير تـــرددا
أهـــم كمـــا همـــت فـــأذكر أننـــى فتـــاك ، فيـــدعونى هـــواك إلى الهـــدى
كذلك لم أذكـرك والخطـب يلتقـى بـه الخطـب إلا كـان ذكـرك مسـعدا [2]

---

1 - م . نفسه ص7:6. وفى مدحة ثالثة – للخديوى أيضا - يبدأها بالغزل فى قوله :

أغرتـك الغـراء أم طلعـة الـبدر وقامتـك الهيفـاء أم عـادل السـمر
وشـعرك أم ليـل تراخـت سـدوله وثغـرك أم عقـد تنـظم مـن در

وبعد ثلاثة عشر بيتا يبدأ فى مديحه :

وعـن حبـه لـم يثننـى غيـر مدحـة لما لخديوى العصر فخرا مدى الدهر.. إلخ

(م . نفسه ص 9:8)

وهنا نلاحظ حسن التخلص فى الانتقال من الغزل إلى المديح ،فى ذكره بأن حب الممدوح أثناه عن تغزله بالمحبوب .

2 - ديوان حافظ إبراهيم ضبطه وصححه وشرحه ورتبه أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبيارى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب عام 1980 ج1 ص7.

وبعدها يدخل في مغامرات ، وعلم أهلها بذلك فتربصوا به ، لولا شجاعته التى أرغمتهم على الفرار ، **يقول** :

تيمنتهـــا والليـــل في غـــير زيـــه وحاسدها في الأفق يغرى بى العدا

ســريت ولم أحــذر وكــانوا بمرصــد وهل حـذرت قبلـى الكواكـب رصــدا

فلمــا رأونــى أبصــروا المــوت مقــبلا ومــا أبصــروا إلا قضــاء تجســدا

قال كبير القــوم قد ساء فألـنا فإنا نرى حتفا بحتف تقلدا إلخ [1]

و محمد عبد المطلب ينشد قصيدة في حفل لجمعية المواساة سنة 1914، **فيبدأها بقوله**:

وعــدت يــا طيــف بالمــزار أيظفــر الجــفن بــالقرار

وهــل يطيــب الكــرى لجــفن يبيــت في ذمــة الــدرارى

ثم يتخلص من الغزل إلى الغرض المقصود من القصيدة (الدعوة إلى البر والحث على المواساة) **بقول** :

خــلّ الهــوى والصــبا ودعنــى مــن التصــابى والادكــار

فــإن لى بــالهموم شــغلا عــن ذكــر ليلــى وعــن نــوار

وارحمتــا للكــريم يشكــو نوائــب العــيش أم يــدارى [2]

وأحمد شوقى ، في مطلع قصيدة سياسية خالصة ، حول مشروع ملنر والوفد الذى جاء يعرض ذاك المشروع على المصريين ، **يبدأ بالغزل** :

إثــن عنــان القلــب واســلم بــه مــن ربــرب الرمــل ومــن ســربه

ومــن تثنــى الغيــد عــن بــانة مــرتجة الأرداف عــن كثبــه

---

1 - م. نفسه ص8.

2 - ديوان محمد عبد المطلب القاهرة د . ت ص90:91.

ظبـــاؤه المنكســـرات الظـــبا يغلبـــن ذا اللـــب علـــى لبـــه

ثم يمضى في هذا الغزل إلى أن يتخلص بقوله عن نفسه وقلبه :

شـــاب وفي أضـــلعه صـــاحب خلـــو مـــن الشـــيب ومـــن خطـــبه

مـــا خـــفّ إلا للـــهوى والعـــلا أو لجـــلال الـــوفد في ركبـــه [1]

أكثر من ذلك نجد الشاعر أحمد نسيم يقدم بالغزل التقليدى لقصيدة قالها في أجنبى (هوالدوق أوف كنوت) يقول في المطلع ، وكأنه يتحدث عن بدوى ، أوأحد شيوخ القبائل في الجاهلية :

هـل الحـب إلا مهجـة الصـب تـدنف أو الشـــوق إلا لوعـــة تلـــهف

أفـق قبـل حـب لـيس يخبـو ضـرامه غـــداة رحيـــل والمـــدامع ذرف

إلى أن يتخلص إلى المدح :

ومـا هـاجنى إلا الجمـال مـع الصـبا ودل الغـــوانى والغـــزل المشـــنف

علـى أنـه لا مرتجـى غيـر قـادم عليـه مـن العليـاء بـرد مفـوف [2]

وأحيانا أخرى نرى الشعراء يصفون الأطلال ، ويتحدثون عن الرسوم والديار ، كما كان يفعل القدماء ، ومن أمثلة ذلك قول أحمد الكاشف :

دار أحـــبائى عليـــك ســـلاميا بعهـدك أدعـو لـو سمعـت دعائيـا

وهـل تسـمع الـدار المعطلـة التـى غـدا رحبهـا مـن أهلـها اليـوم خالـيا

وصـارت عفـاء غـير ربـع يلـوح لى بأيـدى البلـى يسـتقبل الـريح خاويـا

ويلقى الغوادى شاكيا باس وقعها عسانى أين ساروا عسانـيا [3]

---

1 - الشوقيات ط . القاهرة 1950 ج1 ص65.
2 - ديوان أحمد نسيم ط. القاهرة 1326 هجريا ج1ص128:129.
3 - ديوان أحمد الكاشف ط . القاهرة القاهرة 1913 م ج1 ص88.

ومن ذلك قول أحمد محرم :

أهـذى ديـار للقـوم غيرهـا الـدهر فعوجـوا عليهـا نبكهـا أيهـا السـفر
محـا آيهـا مـرّ العصـور وكرهـا إذا مـر عصـر كـرّ مـن بعـده عـصر
نسـائلها أيـن اسـتقل قطينـها وهـل تنطـق الـدار المعطلـة القفـر [1]

ومنه قول شوقى :

أنـادى الربـع لـو ملـك الجـوابا وافديـه بدمـعـى لـو أثـابا
نثـرت الـدمع في الـدّمن البـوالى كنظمـى في كواعبهـا الشـبابا..إلخ [2]

أكثـر مـن ذلـك نـراهم يقلـدون الشعراء القـدماء في استيقاف صـاحبين على الأطلال وسؤالهما عن المحبوب ، في أسئلة لا جواب لها ، مقلدين امرأ القيس، الذى قيل عنه هو أول من استوقف الركب ، **وسأل خليليه في قوله :**

قفـا نبـك مـن ذكـرى حبيـب ومنـزل بسـقط اللـوى بـين الـدخول فحومـل

حتى أن امرأ القيس نفسه برر لوقوفه على الأطلال وبكاء الدار، بأنه قلد من سبقه ليس إلا ، **حين قال :**

عوجـا علـى الطلـل المحيـل لأننـا نبكـى الـديار كمـا بكـى ابـن خـذام

فهذا حـافظ إبـراهيم يقـول في قصـيدة لـه في تهنئـة الإمـام محمد عبده بالإيـاب **من الجزائر :**

بكّـرا صـاحبىّ قبـل الإيـاب وقفـا بـى بعـين شمـس قفـا بـى [3]

ويقول – أيضا – في مفتتح قصيدة في رثاء عثمان أباظة :

ردّا كئوسـكما عـن شـبه مفـؤدد فلـيس ذلـك يـوم الـراح والعـود [4]

---

1 - ديوان أحمد محرم ط . القاهرة عام 1910 م ج1 ص73.
2 - الشوقيات ط القاهرة 1950 م ج1 ص54.
3 - ديوان حافظ إبراهيم ج1 ص23.
4 - م .نفسه ج2 ص 22.

وبقول شوقى في قصيدة له عن إسماعيل :

يـــا خليلـــىّ لا تـــذما لى المـــوت فـإنى مـن لا يـرى العـيش حمـدا [1]

استيحاء الروح الفنية في القصيدة التراثية عند شعراء مدرسة الإيحاء لم يقتصر على بناء القصيدة بالبكاء على الأطلال والبدء بالغزل ،واستيقاف الخلان ، إنما نجده روحا تسرى في القصائد من حيث التشكيل اللغوى ، والجمل الشعرية والصور الفنية ، حتى أننا في كثير من القصائد ، نجد أنفسنا وكأننا في بيئة عربية قديمة ، وليس ذلك غريبا ، وخاصة أن هؤلاء الشعراء قد داروا في فلك الأغراض الشعرية القديم(المدح والهجاء والوصف والفخر ....إلخ).

فالبارودى في فخره بنفسه نجد ه فارسا قديما بأسلحته التقليدية السيف والرمح، يقاتل كالأسد في الهيجاء ، كقوله :

وبحـر مـن الهيجـاء خضـت عبابـه ولا عاصـم إلا الصـفيح المشطـب

تظـل بـه حمـر المنايـا وسـودها حواسـر في ألوانهـا تتقلـب

توسـطته والخيـل بالخيـل تلتقـى وبيض الظبا في الهام تبدو وتغرب[2]

هذا المعجم الشعرى القديم بكل ارتباطاته وإيحاءاته ظل هو المادة التى يعول عليها الشاعر عندما وصف القطار ، كإنجاز عصرى من إنجازات هذا العصر ، يصوره فرسا ، ولكن أوتى من القدرات لم يؤتها غيره من القوة والاندفاع والمغامرة ، يقول :

ولقد علوت سراة أدهم لـو جرى في شـأوه بـرق تعـثر أو كبـا

يطوى المدى طى السجل ويهتـدى في كـل مهمهـة يضـل بهـا القطـا

يجرى على عجل فلا يشكو الوجى مد النهـار ، و لا يمـل مـن السرى

1 - الشوقيات ط. القاهرة 1950ج1 ص 123.
2 - ديوان البارودى ج1 ص421.

لا الوخـد منـه، ولا الرسـيم ولا يـرى يمشـى العرضـنة أو يسـير الهيـدبى
ربـــان بـــين ضـــلوعه ،لكنـــه يشـكو بزفراتـه لهيبـا في الحـشا
مـــازال يـــنهج في المســير طرائـــقا تـــدع الجيـــاد مقيـــدات بالوجـــى
زجـــل يـــردد في اللـــهاة صـــهيله رفعـــا كزمزمـــة الحـــى المرعـــد
متلفتـــا عـــن جانبيـــه يهـــزه مـــرح الصـــبا كالشـــارب المتـــفرد
حتـــى وصـــلت إلى جنـــاب أفـــيح زاهـى النبات،بعيـد أعمـاق الثـرى [1]

فالقطـار فـرس يتصـف بسـرعته الفائقـة يتجـول في الأمـاكن البعيـدة قليلـة المسالك ،لايمل من السير ليلا ولا نهـارا، تنوع في مشيته مـا بين سير الخيل والإبل ، ويصـدر دخانـا مـن صـدره كـالزفير الـذى ينفثـه الفـرس ، وإن تفـوق عـن الفـرس في السرعة والتحمل ،وفي أوصـافه هـذه يـذكرنا بأوصـاف الفـرس عنـد عـنترة ، وعنـد طرفة بن العبد في معلقته ،**ومنها قوله** :

وكـــرى إذا نـــادى المضـــاف محنبـــا كســـيد الغضـــا نبهتـــه المتـــورد [2]

وقـد رأى العقـاد في تقليـد البـارودى لنمـاذج الشـعر القـديم مزيـة لـذلك الشـعر في زمنـه يقـول" وربمـا كانـت محاكـاة البـارودى للأقـدمين هـى أنفـع في شـعره للأدب المصـرى الحـديث ،لأنـه رد إلى المعاصـرين يقـين القـدرة علـى مجـاراة العباسـيين

---

1 - ديوان البارودى ج 1 ص 213.الوخد:سعة الخطو،الرسيم :سير الإبل ،العرضنة : السير بنشاط ، الهيدبى : مشى الخيل، هذا التصور للشعر عند شعراء هذه المدرسة نجده روحا تسرى في أشعارهم ، حتى يخيل للقارىء أننا أمام نصوص شعرية قديمة ، نذكر على سبيل المثال للجواهرى قوله مخاطبا الحسين :

فـــداء لمثـــواك مـــن مضـــجع تنـــــور بالأبلـــــج الأروع
بـــأعبق مـــن نفحـــات الجنـــان روحـــا ومـن مسكهـا أضـــوع
ورعيـا ليومـك يـو " الطفـوف" وســقيا لأرضـــك مـــن مصـــرع
وحنـــا عليـــك بحـــبس النفـــوس علـــى نهجـــك النّيـــر المـــهيع

المختار من شعر الجواهرى ، ط الهيئة العامة المصرية للكتاب مكتبة الأسرة عام 2002 ج1 ص 48.

2 - راجع : أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، اختيار الأعلم الشنتمرى ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى فى الآفاق الجديدة ، بيروت ط3 عام 1983 - 51/1

والمخضرمين والجاهليين في ميدان اللغة والتركيب ، بما أتقن من معارضتهم في المذاهب والأساليب ، وليس أدعى من هذه الثقة على الابتكار والاستقرار والاعتماد على النفس والإفلات من قيود التقليد "[1]

أفاد شوقى من تجربة البارودى ولكنه تجاوزها ، وإن جرى على سنن البارودى في احتذاء القديم ، ولكنه قد أثبت انتماءه إلى عصر الإبداع الشعرى القديم المتحضر. فهو لم يعارض شاعرا ممن كانوا قبل العصر العباسى ، وأكد أنه يسامت شعراءه في قدراتهم إن لم يتفوق عليهم ،وعاد شوقى فانغمس في واقع العصر الذى يعيشه ، واستوعب أحدث ما أسفر عنه العلم في ذلك العصر من مخترعات ، فعرض له بالوصف ،ولكنه جاوز في هذا نهج البارودى ومنطقه ، وقد مر بنا وصف البارودى للقطار ، ويمكننا أن نقارن به وصفه للغواصة مثلا ، حيث يقول:

ودبابة تحت العباب بمكمن ... أمين ترى السارى وليس يراها
هى الحوت أو في الحوت منها ... مشابه فلو كان فولاذا لكان أخاها
أبث لأصحاب السفين غوائلا ... وألام نابا حين تفغر فاها
خؤون إذا غاصت ، غدور إذا طفت ... ملعنة في سبحها وسراها
تبيت سفن الأبرياء من الوغى ... وتجنى على من لا يخوض رحاها

فعلى الرغم من أنه شبهها بالحوت فإن هذا التشبيه أقرب ما يكون إلى الحقيقة ، لأن الغواصة تمتلك كل خصائص الحوت ، وإن فاقته في قدراتها التدميرية ، وطبيعى أن تكون رؤية شوقى ومعالجته في هذا المجال متقدمة على ما

1 - العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص147:148.

سبقها ، نظرا لما كان قد أصاب الحياة من تطور وتقدم خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين [1].

بل قد يمعن البارودى في افتتانه بالنمط الشعرى التقليدى في الصورة الشعرية، ويستوحى البارودى الصورة القديمة من تراثنا ، فشبه المرأة بالظبية والغزالة وغصن البان ، ونظرتها تضيع العقل لأنها تفعل فعل الخمر ،وتشبيه العين بالنرجس ، والشعر بالسوسن ،والنهد بالرمان ،والخد في الاحمرار بالتفاح ، هذه تشبيهات تراثية ، تداولها الشعراء على مر العصور، يقول :

من لى بظبية خدر كلما وعدت بزورة أعقبت للوعد إخلافا
تحكى الغزالة ألحاظا إذا نظرت والورد خدا وغصن البان ألطافا
تاهت بنقطة خال فوق وجنتها
زيدت بها عشرات الحسن أضعافا [2]

ومن ذلك – أيضا – قوله :

والوعة القلب من غزلان أخبية تكاد تسكر من أحداقها الراح
من كل مائسة كالغصن قد جمعت بدائعا كلها للحسن أوضاح
فالعين نرجسة ، والشعر سوسنة والنهد رمانة ، والخد تفاح [3]

وهنا نراه في البيت الأخير جمع أربعة تشبيهات في البيت الواحد ، على غرار ولوع الشاعر القديم في الجمع بين عدة تشبيهات في بيت واحد ، لاستحسان البلاغيين القدماء لهذا المسلك ، فعندهم البيت الشعرى الذى يحتوى على أكثر عدد من التشبيهات أفضل من الذى يحتوى على أقل منه ،و تشبيهات البارودى هى ما

1 - راجع : د . عز الدين إسماعيل : آفاق الشعر الحديث والمعاصر فى مصر ص 46.
2 - ديوان البارودى ج3 ص284:285.
3 - م . نفسه ج1 ص352.

نجدها في التراث العربى (العين كالنرجس ،والشعر كالسوسن ، والنهد كالرمان ، والخد كالتفاح) ومنه قوله أيضا :

فللمسك رياه، وللبان قده ... وللورد خداه، وللظبى جيده

ومنه قوله أيضا :

فمن لقلبى بظبى واد ... بين وشيج الرماح يعدو

أشتاق نجدا وساكنيه ... وأين منى الغداة نجد

ذاب فؤادى بحب ليلى ... يا لفؤاد براه وجد [1]

ويتصنع الغزل على غرار عمر بن أبى ربيعة :

أى قلب على الصدود يبقى ... أو لم يكف أنى ذبت عشقا

لم تدع منى الصبابة إلا ... شبحا شفه السقام فدقا

ودموعا أسالها الوجد حتى ... غلبت أدمع الغمامة سبقا

إلى قوله :

إن يكن دأبك الصدود فقلبى ... عنك راض، وإن عذابك أشقى

فعليك السلام منى فإنى ... مت شوقا ، والله خير وأبقى [2]

ويقلد القدماء في وصف الطبيعة بصور من الطبيعة القديمة ، لأنه اعتمد على دواوين الشعراء القدماء، لا الواقع المعيش ، يقول :

رمت بخيوط النور كهربة الفجر ... ونمت بأسرار الندى شفة الزهر

ففي الجو هتان يسيل وفي الثرى

سيول ترامى بين أودية غزرإلخ [3]

---

1 - م . نفسه ج1 ص569.
2 - م . نفسه ج 2 ص321:322.
3 - م . نفسه ج2ص3.

فتتردد في هذه الأبيات أصداء مستمدة من وصف مظاهر الطبيعة والربيع عند ابن المعتز وأبى تمام ، **كقول ابن المعتز** :

أتـــاك الربيـــع بصـــوب البكـــر ورف علـــى علـــى الجســـم بـــرد الســـحر [1]

ومن وصف أبى تمام للربيع ، والتى نجد صدى لها في أبيات البارودى ، **قوله** :

مطـــر يـــذوب الصـــحو منـــه وبعـــده صحـــو كـــاد مـــن الغضـــارة يطـــمر

غيثـــان فـــالأنواء غيـــث ظاهـــر لـــك وجهـــه ، والصـــحو غـــث مضـــمر

مـــن كـــل زاهـــرة ترقـــرق بالنـــدى فكأنهـــا عـــين إليـــك تحـــدر...إلخ [2]

ويكثـر في شـعرهم تصـوير الشـجاع بالأسـد علـى غـرار الشـعر القـديم ، ويمعـن الجواهرى في رسم هذه الصورة للأسد في تفصيلاتها ، **في قوله** :

والمجهـــزون علـــى الجرحـــى كـــأنهم ربـــد الـــذئاب اشـــتفت أن جـــرح الأســـد

يغـــيظهم أنّ في يافوخـــه شممـــا وأن تنـــاثر عـــن أكتافـــه اللـــبد

وأنه وهمـــوم الغاب تثقـله لا كاهل خان مينه ولا كتـد [3]

وفي وصـف البـارودى للسماء وبرقهـا ونجمهـا ، والليـل وظلمتـه وفجـره ، يـذكرنا بأبيات ابن المعتز عن البرق ، **بقول البارودى** :

يطيـف بهـا الـبرق أحيانـا فيزجـره مخـرنطم زجـل مـن رعـدها خمـط

كأنما البرق صوت والحيا نجب يلوح في جسمها من مسه حبط...إلخ

وقد قال ابن المعتز عن البرق :

فـــترى الســـماء إذا عـــدت مملـــوءة مـــن نقعـــه والأرض ذات شجـــاج

---

1 - ديوان شعر ابن المعتز تصنيف أبى بكر محمد بن يحيى الصولى ، تحقيق د . يونس أحمد السمرائى ، ط . عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع لبنان عام 1997 ص247.

2 - ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى ، تحقيق محمد عبده عزام ط 3. دار المعارف د.ت 192/2.

3 - المختار من شعر الجواهرى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب مكتبة الأسرة عام 2002م مختارات ج1 ص 124.

وكـــأن إذا مـــا رجعـــت نهـــقاته وصهـــيله درجـــا مـــن الأدراج

كـــأن آثـــار الكـــلوم بكـفـــه حلـق الحديـد ســـمرن فـوق رتـاج

يحـــدو لواقـــع لا تمـــل طـــرادا في كوكـــب مـــن قيظـــه وهـــاج [1]

ونجـد كـثيرا مـن في ثنايـا شـعر البـارودى متـأثرا بشـعر الشـعراء القـدماء في تغزله ،**منه قوله** :

فكـم مـن صـريع في حبائـل مقلـة وكـم مـن أسـر في قيـود ذوائـب

لعمـرك مـا في الأرض وهـى رحيبـة لغـزلان هـذا الحـى عـذر مناسـب

فـلا تطلـبن الحسـن في غـير أهلـه فأبدع ما في الأرض حسن الأعارب [2]

يذكرنا بقول المتنبى :

مـــن للجـــآذر في زى الأعاريـــب حمـــر الحلـــى والمطايـــا والجلابيـــب

مـا أوجـه الحضـر المستحسـنات بـه كأوجـــه البـــدويات الرعابيـــب

حســـن الحضـــارة مجلـــوب بتطريـــة

وفي البـــداوة حســـن غـــير مجلـــوب [3]

والبـارودى يتتبـع خطـوط الصـورة الجزئيـة في أدبنـا القـديم ، فمـثلا صـورة (رعى الليل) نجدها في شعره كما جاءت في الشعر القديم ،**وذلك مثل قوله** :

أبيـت أرعـى نجـوم الليـل مرتفعـا في قنـــة عـــز مرقاهـــا علـــى الراقـــى

ومن قبل قالت الخنساء :

أرعـى النجـوم ومـا كلفـت رعيتهـا وتـــارة أتغشـــى فضـــل أطمـــارى

---

1 - ديوان ابن المعتز ص123.والشجاج الصوت الغليظ .

2 - ديوان البارودى ج1 ص453.

3 - العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب (المتنبى) للشيخ نصيف اليازجى ط دار صادر بيروت د. ت ج308:306/2

وقال ابن المعتز :

ياليلـــة بـــت فيهـــا دائـــم الســـهر أرعـى النجـوم حليـف الهـم والفكـــر

وقال ابن خفاجة الأندلسي :

أراعـــى نجـــوم الليـــل حبـــا لـــبدره ولســت كمـــا ظـن الخلـــى منجمـــا[1]

1 - راجـع : د . محمـود حامـد شـوكت ود . رجـاء عيـد : مقومـات الشـعر العربـى الحـديث والمعاصـر ط . دار الفكر العربى عام 1975 ص 75.

obeikan.com

-3-

ومن صور التناص عند شعراء مدرسة الإحياء ما أطلق عليه محمد بنيس (الامتصاص) وعرفه بأنه مرحلة أعلى في قراءة النص الغائب ، وهو القانون الذى ينطلق منه أساس أهمية هذا النص وقداسته ، فالامتصاص لا يجمد النص الغائب ولا ينقده ، فهو يعيد صوغه فقط وفق متطلبات تاريخية ، لم يكن يعيشها في المرحلة التى كتب فيها ، ويطلق عليه سعيد يقطين المتناص : وقصد به بنية نصية محولة ومتداخلة مع بنية أخرى ،بحيث لا يمكن فصل إحدى البنيتين عن الأخرى .

وفي تراثنا العربى – في دراسة السرقات – نجد هذا المعنى فيما أطلق عليه ابن الأثير المسخ والسلخ ، وقصد بهذين المصطلحين تغيير المعنى المأخوذ (المسخ أخذ بعض المعنى ، والمسخ إحالة المعنى إلى ما دونه) [1]

وفي هذا النوع من التناص نجد فيه الاستيحاء الفنى ، الذى يند عن النسخ والتقليد ، ومجرد النقل عن النصوص الأخرى، ويتمثل فيه حسن الإفادة من النصوص الأخرى ، وقد أشار الناقد العربى إلى مثل هذا النوع ،وأشاد به ، فعند أبى هلال العسكرى من أخذ المعنى " فكساه لفظا من عنده أجود من لفظه ، كان (هو) أولى به ممن تقدمه "[2]

وقد أوضح ابن رشيق طرق أخذ المعنى بهذه الصورة " بأن يختصره إن كان طويلا ، أو يبسطه إن كان كزّا ،أو يبينه إن كان غامضا ،أو يختار له حسن الكلام ، إن كان سفسافا ، أو رشيق الوزن إن كان جافيا "[3]

---

1 - ابن الأثير (ضياء الدين): المثل السائر ، تحقيق د. أحمد الحوفى و د. بدوى طبانة ط. نهضة مصر عام 1959. ج3ص222.

2 - أبو هلال العسكرى (الحسن بن عبد الله بن سهل): الصناعتين (الكتابة والشعر)تحقيق د. مفيد قميحة ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط1 عام 1981ص219.

3 - ابن رشيق (أبو على الحسن بن رشيق) : العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده،تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط دار الجيل1972. 290/2

والاستيحاء من فكر الآخرين ظاهرة فنية إيجابية ، لا نتناولها في ضوء السرقة، ولكن في ضوء التناص كظاهرة فنية جيدة (أى دمج نص في نص أدبى آخر، يكون له قيمة فنية في إثراء النص الأدبى) ونقف على نماذج من شعر شعراء مدرسة الإحياء ، منه قول البارودى :

فما أبصرت في الإخوان ندبا يجل عن الملامة والعتاب
ولكنا نعاشر من لقينا على حكم المروءة والتغابى

مستفيدا من قول زهير :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث، أى الرجال المهذب [1]

و قال بشار بن برد الشاعر العباسى:

إذا كنت في كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه

وإفادة البارودى من البيتين ، وتكثيف المعنى وبأسلوب أكثر سهولة من سابقيه، يعطيه الجمال والرونق ، وفي قوله في مدح الخديوى عباس حلمى :

ورد البلاد وليلها متراكب فأضاءها كالكوكب المشبوب
برويه تجلو الصواب وعزمة تمضى مضاء اللهزم المذروب

استفاد من قول أبى نواس في مدح الأمين :

رفع الحجاب لنا فلاح لناظر قمر تقطع دونه الأوهام
ملك إذا اعتسر الأمور مضى به رأى يفل السيف وهوحسام [2]

وفي قوله في القصيدة السابقة :

فالخصب في الدنيا علامة عدله والغيث فضلة جوده المسكوب

1 - ديوان البارودى ج1 ص 213 و ديوان زهيربن أبى سلمى ط المكتبة الثقافية .بيروت لبنان د . ت . ص18.
2 - ديوان البارودى ج1 ص 345 و ديوان أبى نواس ط .دار صادر بيروت د . ت ص576 .

وأعـــاد مصـــر إلى جمـــال شـــبابها مـن بعـد مـا لبثـت خمـار مشـــيب

مستفيدا من قول أبى نواس :

ملـــك توحـــد بالمكـــارم والعلـــى فـــرد فقيـــد النـــد فيـــه هـــمام

فـــالبهو مشـــتمل ببـــدر خلافـــة لـــبس الشـــباب بنـــوره الإســـلام[1]

ومن هذه الأبيات قوله (البارودى) :

وإذا أراد الله رحمـــــــة أمـــــــة بعـــث الشـــفاء لهـــا بخـــير طبيـــب

ومن قبل قال أبو نواس :

داوى بـــــالقلوب مـــــن العمـــــى حتـــى أفقـــن ومـــا بهـــن ســـقام[2]

ومن الأبيات – أيضا – قوله :

لا زلـــت في فلـــك المعـــالى كوكبـــا تهـــدى الضـــياء لأعـــين وقلـــوب

ومن قبل قال أبو نواس :

فســـلمت للأمـــر الـــذى ترجـــى لـــه وتقاعســـت عـــن يومـــك الأيـــام[3]

ومن هذه الأبيات قوله (البارودى):

انظـــر إلى تجـــد خيـــالا باليـــا تحـــــت الثيـــــاب ألا ينعتـــــا

يذكرنا بقول المتنبى :

كفـــي بجســـمى نحـــولا إننـــى رجـــل لـــولا مخـــاطبتى إيـــاك لم ترنـــى

وقول بشار :

إن في بـــــردى جســـــما نـــــاحلا لـــــو توكـــــأت عليـــــه لانهـــــدم

وفي قوله (البارودى):

ســـقيما تظـــل العائـــدات حوانيـــا عليـــه بإشـــفاق وإن كـــان لا يجـــدى

---

1 - ديوان البارودى ج 1 ص 421وديوان أبى نواس ص575.
2 - ديوان البارودى ج1 ص 468 ديوان أبى نواس ص576.
3 - ديوان البارودى ج1 ص 532 ديوان أبى نواس نفس الصفحة.

obeikan.com

فبت كأنى بين أنياب حية من الرقط أو في براثن أسد

يذكرنا بقول النابغة الذبيانى :

فبت كأن العائدات فرشن لى هراسا به يعلى فراشى ويقشب [1]

وبقول (النابغة) أيضا:

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع [2]

وفي شعرشعراء مدرسة الإحياء نجد الحكمة والعظة - في بنية النص حتى ولو لم تكن متلاحمة بالبناء الفنى للقصيدة ،وهذا في الغالب - أسوة بالشعر العربى القديم ،بل نجد المعنى منقولا في كسوة لفظية مختلفة عن أشعار القدماء ،

ومن هذه الأمثلة في شعر البارودى :

ففي الناس من تلقاه في زى عابد وللغدر في أحشائه عقرب تسرى

ومن قبل قال أبو نواس :

وأعظم أعداء الرجال ثقاتها وأهون من عاديته من تحارب [3]

ومن هذه الأمثلة قول البارودى :

ومن لم يذق حلو الزمان ومره فما هو إلا طائش اللب نافر

ومن قبل قال بشار :

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

ومنه قول البارودى :

إذا لم يكن إلا المعيشة مطلب فكل زهيد يمسك النفس جابر

ومن قبل قال امرؤ القيس :

ولوأن ما أسعى لأدنى معيشة كفانى— ولم أطلب–قليل من المال [4]

---

1 - ديوان النابغة الذبيانى : تحقيق وشرح كرم البستانى ، ط . دار صادر بيروت د . ت ص17.
2 - م . نفسه ص80.
3 - ديوان أبى نواس ص42.
4 - ديوان امرىء القيس بن حجر تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط 3 دار المعارف د .ت ص 39.

ومنه قول البارودى :

والـدهر مدرجـة الخطـوب فمـن يعـش ... يـــهرم، ومـن يهـرم يعـث بـه البلـى

ومن قبل قال زهير بن أبى سلمى :

سـئمت تكـاليف الحيـاة ومـن يعـش ... ثمـانين حـولا لا أبـا لـك يسـأم [1]

وقال البارودى :

ومـن لم يـدار النـاس عـاداه صـحو ... أنكـــره مـــن قومـــه مـــن يســـوده

ومن قبل قال زهير:

ومـــن لم يصـــانع في أمـــور كـــثيرة ... يضـــرس بأنيـــاب ويوطـــأ بمنســـم [2]

ومنه قول البارودى:

فمـــا أبصـــرت في الإخـــوان نـــدبا ... يجلـــى عـــن المـــلامة والـــعتاب

ولكنـــا نعاشـــر مـــن لقينـــا ... علـــى حكـــم الـــروءة والتغـــابى

يذكرنا بقول زهير :

ولســـت بمســـتبق أخـــا لا تلمـــه ... علـــى شـــعث أى الرجـــال المهـــذب[3]

وقول بشار بن برد :

إذا كنـــت في كـــل الأمـــور معاتبـــا ... صـــديقك لم تلـــق الـــذى لا تعـــاتبه

ومن قول البارودى :

قـــد يظفـــر الفاتـــك الألـــوى بحاجتـــه ... ولـــيس يـــدركها الهيابـــة الحـــذر

يذكرنا بقول بشار :

مـن راقـب النـاس لم يظفـر بحاجتـه ... وفـــاز بالطيبـــات الفاتـــك اللـــهج [4]

---

1 - ديوان زهير بن أبى سلمى ص 30.
2 - ديوان زهير بن أبى سلمى ص31.
3 - ديوان زهير بن أبى سلمى ص18.
4 - راجع : د . محمود حامد شوكت ود . رجاء عيد : مقومات الشعر العربى الحديث والمعاصر ص77.

openkan.com

النوع الثانى للتناص عند جيرارجينيت (العلاقة التى يقيمها النص في الكل الذى يشكله العمل الأدبى ، مع ما يمكن أن نسميه الملحق النصى) نجد هذا النوع في المعارضات الشعرية عند شعراء مدرسة الإحياء ، والمعارضة صياغة قصيدة على غرار قصيدة أخرى لشاعر آخر يلتزم فيها الشاعر المعارض (بكسر العين) بالوزن والقافية وحرف الروى للقصيدة التى عارضها ، بل وأحيانا يكرر من أفكار وألفاظ الشاعر الذى يعارضه ، ولكن في الوقت نفسه يحاول الشاعر المعارض(بكسر العين) أن يجعل قصيدته تفوق القصيدة التى عارضها قيمة فنية ، لإظهار تفوقه الفنى ، **ومن القصائد التى عارض فيها البارودى الشعراء القدماء القصيدة التى مطلعها** :

طربت وعادتنى المخيلة والسكر

وأصبحت لا يلوى بشيمتى الزجر[1]

عارض فيها قصيدة أبى فراس الحمدانى التى مطلعها :

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهى عليك ولا أمر؟

صريع هوى يلوى بى الشوق كلما تلألأ بدر ،أو سرت ديم غرّ...إلخ.

والقصيدة التى مطلعها :

أعد على السمع ذكر البان والعلم

واعذر شآبيب دمعى إن جرت بدم[2]

---

1 - ديوان البارودى ج . 2 ص39.

2 - ديوان البارودى ج3 ص578.

يعارض فيها قصيدة البوصيري التي مطلعها :

أمـــن تـــذكر جـــيران بـــذى ســـلم أرقـت دمعـا جـرى مـن مهجـة بـدم

وفي القصيدة التي افتتحها بقوله :

ظـــن الظنـــون فبـــات غـــير موســـد حـــيران يكـــلأ مســـتنير الفـــــرقد

بـــل رب غانيـــة طرقـــت خباءهـــا والـنجم يطـرف عـن لـواحظ أرمـد

قالـــت وقـــد نظـــرت إليّ فضـــحتنى فـــارجع لشـــأنك فالرجـــال بمرصـــد

فمســـحتها حتـــى اطمـــأن فؤادهـــا ونفيـــت روعتهـــا بـــرأى محـــــصد

ففي هذه القصيدة يعارض قصيدة النابغة الذبياني والتي مطلعها :

أمـــن آل ميـــة رائـــح أومغتـــدى عجـــلان ذا زاد وغـــير مـــزود [1]

وفي أبياته السابقة يتلمس أثر غزليات عمر ابن أبي ربيعة وخاصة قصيدته :

أمـــن آل نعـــم رائـــح أو مغتـــدى غـداة غـد أم رائـح فمهجـر ..إلخ [2]

وفي قوله (البارودى) :

صـــلة الخيـــال علـــى البعـــاد لقـــاء لـــو كـــان يملـــك عينـــى الإغفـــاء

في هذه القصيدة ينظر متمثلا لقول المتنبى :

أمـــن ازديـــارك في الـــدجى الرقبـــاء إذ حيـــث كنـــت في الظـــلام ضـــياء

أســفي علـــى أســفي الـــذى ولهتنـــى عـــن علمـــه فيـــه علـــى خفـــاء

مثلـــت عينـــك في حشـــاى جراحـــة فتشـــابها كلتاهمـــا الـــنجلاء [3]

---

1 - ديوان محمود سامى البارودى ج ص136.و ديوان النابغة تحقيق وشرح كرم البستانى ط . دار صادر بيروت د. ت ص38

2 - ديوان عمر بن أبى ربيعة المخزومى القرشى، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة عام 1978 ص64.

3 - راجع : ديوان البارودى ، ج1 ص 63.و العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب (المتنبى) للشيخ نصيف اليازجى ، ط دار صادر بيروت د . ت 23/1.

(البارودى وفي قصيدته) التى يقول فيها :

تلاهيت إلا ما يجن ضمير ودارت إلا ما ينم زفير

هل يستطيع المرء كتمان أمره وفي الصدر منه بارح وسعير

فيا قاتل الله الهوى ما أشده على المرء إذ يخلو به فيغير... إلخ

يعارض في هذه القصيدة قصيدة أبي نواس التى مطلعها :

أجارة بيتينا أبوك غيور وميسور ما يرجى لديك عسير [1]

وفي قصيدته التى مطلعها :

سواى بتحنان الأغاريد يطرب وغيرى باللذات لهو ويلعب [2]

يعارض فيها قصيدة الشريف الرضى :

لغيرى العلا منى القلى والتجنب ولولا العلا ما كنت في الحب أرغب

و قصيدة البارودى التى مطلعها :

يا رائد البرق يمم دارة العلم واحد الغمام إلى حى بذى سلم

يعارض في هذه القصيدة قصيدة البوصيرى التى مطلعها :

أمن تذكر جيران بذى سلم أرقت دمعا جرى من مهجة بدم

وتذكرنا قصيدة البارودى التى مطلعها :

ذهبَّ الصبا وتولت الأيام فعلى الصبا وعلى الزمان سلام

تالله أنسى ما حييت عهوده ولكل عهد في الكرام ذمام

إذ نحن في عيش ترف ظلاله ولنا بمعترك الهوى آثام

نلهو ونلعب بين خضر حدائق ليست بغير خيولنا تستام

---

1 - ديوان البارودى تحقيق وتصحيح وضبط وشرح على الجارم ومحمد شفيق معروف ط دار المعارف عام 1971ج2 ص26. و ديوان أبى نواس ، ط . دار صادر بيروت د . ت ص 214.

2 - ديوان البارودى ج 1 ص231.

obeikan.com

حتـى انتبهنـا بعـد أن ذهـب الصـبا إن اللـــذاذة والصـــبا أحـــلام [1]

نذكرنا بقصيدة أبي نواس التي منها :

يـــا دار مـــا فعـــلت بـــك الأيـــام لم تبـــق فيـــك بـــشاشة تـــستام
عـرم الزمـان علـى الـذين عـــهدتهم بـــك قـــاطنين وللزمـــان عـــرام
ولقـد نهـزت مـع الغـــواة بـــدلوهم وأسمـت سـرح اللـهو حيـث أساموا

وبلغت ما بلغ امرؤ بشـبابه فإذا عصـارة كل ذاك آثـام [2]

وعارض إسماعيل صبري الحصري قصيدة مطلعها :

يـــا ليـــل الصـــب متـــى غـــده أقيـــــام الســـــاعة موعـــــده

يقول إسماعيل صبري :

أقريـــب مـــن دنـــف غـــده فالليـــل تمـــرد أســـوده [3].

وأعتقد أن الشاعر أحمد شوقي أبرز من عارض الشعراء القدماء في شعرهم كمّا وكيفا، ففي قصيدة البردة ، وهي الميمية المشهورة في مدح النبي (ﷺ) ومطلعها :

ريـم علـى القـاع بـين البـان والعلـم أحـل سـفك دمـي في الأشـهر الحـرم

عارض فيها بردة البوصيري ، التي مطلعها :

أمـــن تـــذكر جـــيران بـــذي ســـلم مزجـت دمعـا جـرى مـن مقلـة بـدم

والقصيدة الدالية التي يقول (شوقي) في مطلعها :

مضـــــناك جفـــــاه مرقـــــده وبكـــــاه ورحـــــم عـــــوده

---

1 - ديوان البارودى ج3 ص333:334
2 - شرح ديوان أبى نواس منشورات الشركة العالمية للكتاب ، دار الكتاب اللبنانى ،دار الكتاب العالمى عام 1987 - 368/2.
3 - ديوان إسماعيل صبرى ص114.

وهي معارضة لقصيدة الحصري التي مطلعها :

يـــا ليـــل الصـــب متـــى غـــده أقيـــــام الســـــاعة موعـــــده؟!

والقصيدة السينية والتي مطلعها :

اخـــتلاف الليـــل والنهـــار ينســـى اذكـــرا لي الصـــبا وأيـــام أنســـى

وهي معارضة لسينية البحتري في إيوان كسرى والتي مطلعها :

صـــنت نفســـي عمـــا يـــدنس نفســـي وترفعـــت عـــن جـــدى كـــل جـــبس

والقصيدة النونية ، وهي من أشهر أندلسياته، والتي مطلعها:

يـــا نـــائح الطلـــح أشـــباه عوادينـــا نشجى لواديك أم نأسى على وادينا

عارض فيها ابن زيدون في نونيته التي مطلعها :

أضـحى التنـائي بـديلا عـن تجافينـا ونـاب عـن طيـب لقيانـا تجافينـا

وموشحة شوقي التي يقول في مطلعها :

مـــن لنضـــو يتنـــزى ألمـــا بـــرح الشـــوق بـــه في الغلـــس

عارض فيها موشحة لسان الدين بن الخطيب ،والتي مطلعها (الموشحة)

جـــادك الغيـــث إذا الغيـــث همـــى يـــا زمـــان الوصـــل بالأنـــدلس

وبائية شوقي في مدح السلطان عبد الحميد ،التي مطلعها :

بسـيفك يعلـو الحـق، والحـق أغلـب وينصـر ديـن الله أيـان تضـرب

عارض فيها المتنبي في قصيدته البائية ،والتي مطلعها :

أغالـــب فيـــك والشـــوق الشـــوق أغلـــب

وأعجـــب مـــن ذا الهجروالوصـــل أعجـــب

وقصيدته (شوقي)العينية التي يعارض فيها قصيدة الشيخ الرئيس ابن سينا العينية في النفس ،ومطلعها :

obeikan.com

ضـمى قناعـك يـا سـعاد أو ارفعـى هـذى المحاسـن مـا خلقـن لبرقـع

وقصيدة الشيخ الرئيس مطلعها :

هبطـت إليـك مـن المحـل الأرفـع ورقـــاء ذات تـــــعزز وتمنـــع

و كثير من معارضات شوقى لا نجد فيها اتفاقا إلا في الوزن والقافية ، وبعدها يختلف موضوع قصيدة شوقى عن موضوع القصيدة التى يعارضها اختلافا كاملا ، وقد لاحظ النقاد أن أحمد شوقى في معارضته التى يحتذى القصيدة التى عارضها ، ويحتذى ويقلد ، يتخلف عن منزلة صاحبه الذى عارضه ويسقط دونه ، وحين يحلق (شوقى) في أجواء مشاعره ، ويعبر عن موضوعات تتصل بحياته وحياة بلده وأمته، فإنه يسبق ويجلى ويتفوق على من عارضه [1]

ورأى د. محمد الهادى الطرابلسى أن المعارضة عند شوقى لا تقوم على النسخ، ولا المسخ ، ولا هى مجرد ترجمة للنصوص القديمة ، إلى لغتها الحديثة ، وإنما كانت المعارضة عنده بمثابة ما يسمى اليوم ب " القراءة الجديدة " للموضوع المشترك ، أو المتقارب ، والشاعر في معارضته قارىء بنى كلامه على كتابة سابقة ،بناء كتابة اتجه فيها بالخطاب إلى القارىء عامة ، وليس هو بكاتب قارئ يماحك كاتبا عاصره ، ويتجه إليه بالخطاب رأسا [2].

وهذا الرأى يؤكد أصالة الشاعر وتفرد شخصيته ، وإن كان هذا لا يمنع أن تحتفظ قصيدته المعارضة بسمت القصيدة التى عارضها نهجا وأسلوبا ، اتفاقا مع النهج العام للقصيدة الكلاسيكية التى التزمت بالنهج التراثي فكرا وإبداعا ، لذا عاد فقال د .الهادى " ومما يميز معارضات شوقي ...أنها تحتفظ في نصوصها بمعالم

1 - راجع: د . ناصر الدين الأسد : عناصر التراث فى شعر شوقى – مجلة فصول المجلد الثالث ، العدد الأول ديسمبر 1982 ص 30.

2 - راجع د . محمد الهادى الطرابلسى : شعر على شعر (معارضات شوقى بمنهجية الأسلوبية المقارنة) - مجلة فصول المجلد الثالث ، العدد الأول ديسمبر 1982. ص89و90.

واضحة ، تدل على القصائد التى تعارضها ، فالقصائد الأصلية حاضرة في معارضات شوقى ، لا لأنها تفرض نفسها بصفة خاصة، وإنما لأن الشاعر نفسه عمد إلى إحياء أثرها في قصائده ، وأبى إلا أن تتسلل لنا شخصيته من خلال شخصيات الآخرين ، وإلا لم يكن لشعره معنى يذكر في باب المعارضة ، ودلّ على الحضور في معارضاته حينا بتسمية صاحب القصيدة التى يعارضها صراحة ، وأحيانا بمجرد الإشارة إليه ، وأحيانا أخرى باستعمال أساليب لم يخف اشتراكها بين الشاعرين ، ولا شك أن أكبر دليل على ازدواجية المعارضة اشتراك الشاعرين في مقاطع الأبيات "[1].

ويقف الطرابلسى على نموذج من معارضة شوقى للبوصيرى ليؤكد رؤيته (القصيدة المعارضة قراءة لنص سابق أكثر مما هى تقليد أو مسخ) **بذكر هذه الأبيات لأحمد شوقى** :

116- أخوك عيسى دعا ميتا فقام له وأنت أحييت أجيالا من الرمم

117- والجهل موت ، فإن أوتيت معجزة

فابعث من الجهل أو فابعث من الرجم

118- قالوا : غزوت ورسل الله ما بعثوا

لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم

119- جهل وتضليل ، أحلام وسفسطة

فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

120- لما أتى عفوا كل ذى حسب

تكفل السيف بالجهال والعمم

---

1 - راجع : م . نفسه . نفس الصفحة .

openkan.com

121- والشر إن تلقه بالخير ضقت به

ذرعا وإن تلقه بالشر ينحسم

122 – سل المسيحية الغراء : كم شربت

بالصاب من شهوات الظالم الغلم

123- طريدة الشرك يؤذيها ويوسعها في كل حين قتالا ساطع الحدم

124- لولا حماة هبوا لنصرتها بالسيف ما انتفعت بالرفق والرحم

125- لولا مكانة عيسى عند مرسله وحرمة وجبت للروح في القدر

126- لسمر البدن الطهر الشريف على

لوحين لم يخش مؤذيه ولم يجم

127 – جلّ المسيح وذاق الصلب شانئه

إن العقاب بقدر الذنب والجرم

128- أو النبي وروح الله في نزل

فوق السماء ودون العرش محترم

129 – علمتهم كل شيء يجهلون به حتى القتال وما فيه من الذمم

130- دعوتهم لجهاد فيه سؤددهم

والحرب أسّ نظام الكون والأمم

131- لولاه لم نر للدولات في زمن

ما طال من عمد أو قرّ من دعم

132- تلك الشواهد تترى كل آونة

في الأعصر الغر لا في الأعصر الدهم

obeikan.com

133- بـــالأمس مالـــت عـــروش واعتلـــت

ســـــررلولا القـــذائف لم تـــثلم ولم تصـــم

134- أشياع عيسى أعدوا كل قاصمة ولم نعـــد ســـوى حـــالات منقصـــم

وقال البوصيري :

38- فـاق النبـيين في خلـق وفي خـلق ولم يـــــدانوه في علـــــم ولا كـــــرم

39- وكلـهم مـن رسـول الله ملـتمس غرفـا مـن البحـرأو رشـفا مـن الـديم

40- وواقفــون لديـــه عنـــد حـــدهم مـن نقطـة العلـم أو مـن شـكلة الحكـم

41- فهـو الـذى تم معنـاه وصـورته ثـم اصـطفاه حبيـــبا بـــارىء النسـم

42- منـزه عـن شـريك في محاسـنه فجـوهر الحسـن فيـه غـير منقسـم

43- دع مـــا ادعتـــه النصـــارى في نبـــيهم

واحكـم بمـا شـــــئت مـدحا فيـه واحـتكم

44- وانسـب إلى ذاتـه مـا شـئت مـن شـرف

وانســـب إلى قـــدره مـــا شـــئت مـــن عظـــم

45- فأن فضـل رسـول الله ليـس لـه حـــد فيعـــرب عنـــه نـــاق بفـــم

46- لـــو ناســـبت قـــدره آياتـــه عظمـــا

أحيـــى اسمـــه حـــين يـــدعى دارس اللمـــم

47- لم يمتحنـــا بمـــا تعيـــى العقـــول بـــه

حرصـــا علينـــا فلـــم نرتـــب ولم نهـــم

48- أعيـى الـورى فهـم منعنـاه فلـيس يـرى

في القـــرب والبعـــد فيـــه غـــير مـــنفحم

obeikan.com

49- كالشمس تظهر للعينين من بعد

صغيرة وتكل الطرف من أمم

50- وكيف يدرك في الدنيا حقيقته قوم نيام تسلوا عنه بالحلم

51- فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

52- وكل آى أتى الرسل الكرام بها فإنما اتصلت من نوره بهم

53- فإنه مس فضل هم كواكبها يظهرن أنوارها للناس في الظلم

لقد تحدث البوصيرى عن تفوق محمد (ﷺ) على سائر الأنبياء من (40:38) وتفرده بكمال المحاسن دونهم من (42:41) ثم بيّن أن فضله على البشرية أعظم من فضلهم عليها من (46:43) وأن حقيقته أقرب مأخذا من حقائقهم وأبعد مرمى من (50:47) وأكد في خاتمة القسم تفوقه المطلق ، فإذا محمد خير البشر وأفضل الرسل من (53:51)

أما شوقى فقد أثبت أولا أن معجزة محمد (ﷺ) معنوية لا مادية كمعجزة عيسى (عليه السلام) من (117:116) ثم بيّن أن لمعنى الفتح في الإسلام طابع التوعية الذهنية ، لا صبغة التصفية الجسدية من (121:118) وتحدث عن شأن السيف في المسيحية فبيّن أنها استعملته على كل حال دفاعا ضد هجوم خصومها المشركين الذين استعملوها بدورهم هجوما ، واتخذوا منه شرعة في الحياة من (128:122) وختم بعتاب أن استعمال القوة لإقامة الدعوة ظاهرة مسيحية قبل أن تكون إسلامية من (134:129)[1]

وإذا كان محور الحديث عند الشاعرين مختلفا ، فمن الطبيعي أن تختلف أساليب الأداء في القطعتين وطاقات الدلالة وأبعادها ، فالبوصيرى يعمد إلى

1 - راجع : م . نفسه ص 91:90.

التركيز على ذات محمد(ﷺ)،من حيث هو فرد وإمام،ومحمد(ﷺ)محور الفضل، وهو يجسم الفضل في ذاته ، ويتحلى به في صفاته، فإذا بمحمد(ﷺ)قطب الفضل (فاق النبيين، غرفا من البحر – رشفا من الديم – منزه عن شريك تمّ اللّه (عزوجل) معناه وصورته– جوهر الحسن فيه غير منقسم) وأساليب التمجيد عن طريق الإضافة، الإضافة النحوية (فضل رسول اللّه ليس له أحد– هو شمس فضل– خير خلق اللّه) أو إضافة معنوية (فانسب إلى ذاته – اتصلت آى الرسل من نوره) وتظهر النزعة التمجيدية في شعرالبوصيرى بأكثر جلاء في ترديده المعنى الواحد بإمكانيات مختلفة : فاق النبيين = لم يدانوه ، غرفا من البحر = رشفا من الديم ، نقطة العلم = شكله الحكم ، منزه عن شريك في محاسنه = جوهر الحسن فيه غير منقسم ، وانسب إلى ذاته = وانسب إلى قدره ، اصطفاه (اللّه) = خير خلق اللّه كلهم .

هذه الأساليب تكشف أن بناء هذه القطعة كان على الإعجاب ، ولذلك أفضى الكلام إلى ضرب من التغنى والتعبير عن مجرد الاغتباط .

أما شوقى فقد توجه بالمناجاة لروح محمد (ﷺ) الخالدة ، فلم يتحدث عنه بضمير الغائب ، بل توجه بضمير المخاطب بحيث حرص على تقريب المسافة بينه وبين مخاطبه ،وبعث الحيوية في القضية المشتركة ، وأخرجها من مدار التراث الذى يتغنى به إلى مدار الكسب المتجدد الذى يتطلب رعاية دائمة ويقظة مستمرة.

ولذلك تجاوز في قطعته مجال التغنى والتمجيد إلى الدفاع والنضال ، فاجتهد في تصحيح لحقيقة معجزة محمد (ﷺ) **فهى عنده معنوية لا مادية** :

أخوك عيسى دعا ميتا فقام له وأنت أحييت أجيالا من الرمم

واجتهد في تصحيح المفاهيم الإسلامية في الفتوحات :

جهل وتضليل، أحلام وسفسطة فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

وإن ذهب شوقى مذهب البوصيرى في تقديم محمد على سائر الأنبياء ، فجعله أخا عيسى ، وأشاد بالمسحية (الغرَّاء) ولكنه أوضح أن عيسى في واد وهؤلاء في واد آخر :

لولا حماة هبوا لنصرتها بالسيف ما انتفعت بالرفق والرحم

فالمسيحيون القدماء غير المسحيين بعد ذلك الذين راموا النيل من الإسلام والمسلمين :

أشياع عيسى أعدوا كل قاصمة ولم نعد سوى حالات منقصم

إن معارضة شوقى تقوم على التصحيح ، وتعديل الشطط ، وتعتمد على العقل في التحقيق والنقد والمقارنة والتحليل والتبرير " ومجمل القول أن شوقى عارض النفس الغنائى الصوفي للبوصيرى في بردته بنفس نضالى ملحمى ،ولذلك قد يظن أن أمير الشعراء في مباشرته الموضوع المشترك بينه وبين البوصيرى ، وقد جدد القراءة أكثر مما جدد الكتابة ، ولكن الحقيقة لم يقدم لنا الرؤية الجديدة إلا في نص جديد ، ولا اعتبار هنا بالنزعة الأدبية ، فلا شك أن نزعة شوقى في هذه المعارضة نزعة كلاسيكية كنزعته في سائر شعره ، ولكن النزعات الأدبية لا تحمل في طياتها طابع التقليد والسلبية، بل شأنها في ذلك شأن الأنفاس ذاتها ، ما كان صوفيا منها وما كان ملحميا ، فإنها تختلف في الهوية و لا تختلف حتما في المعيار ، ولذلك نعتبر أن منطلق شوقى في معارضته يبدو في الظاهر منطلق احتذاء ومقاربة ، ولكن مآله مآل ارتقاء ومجاوزة ، وفي المجاوزة عندنا معنى التحرر ، لا معنى التفوق ضرورة ، وإلا لما جاز لنا أن نصرح بأننا طربنا لبردة البوصرى أكثر مما طربنا لنهج البردة ، إلا أن حكمنا هذا مبنى على قصيدة شوقى في حد ذاتها ، لا على نزعته الكلاسيكية فيها "[1]

1 - م . نفسه ص95.

-5-

ومن صورالتناص التى تعكس لنا العلاقة بين الشاعر والتراث نظم التراث ، وهذا النوع من التناص وقد أطلق عليه د . محمد نجيب التلاوى التناص الخارجى[1]، لأن الشاعر لا يلجأ إلى تداخل نص بنص من خلال التشكيل اللغوى ، بل يغلب على النص التناص في الإطار العام للقصيدة ، فالعلاقة بين النص المنتج والنص التراثى تتمحور في (سرد الحدث التاريخ شعرا) أى تحويل المنثور إلى منظوم ، لقيمة أخلاقية وهى الاعتزاز بالماضى ، وأخذ العبرة منه ، وكان أحمد شوقى رائدا في المجال ، حين نظم قصيدة عن كبار الحوادث بوادى النيل ، شارك بها في المؤتمر الشرقى الدولى بمدينة جنيف عام 1894، والقصيدة تربو على الثلاثمائة بيت (307 بيتا) يبدؤها بسبعة عشر بيتا ، يتحدث فيها عن السفينة التى أقلته إلى جنيف ، وفي وصفه هذا يستبدل وصف الناقة في القصيدة التراثية بوصف السفينة ، حتى أنه يشبه سير السفينة في صعودها ونزولها بحركة الإبل في سيرها صعودا وهبوطا في الصحراء ، **يقول** :

نـــازلات في ســـيرها صـــاعدات كـــالهوادى يهـــزهن الحـــداء [2]

وبعد ذلك يفخر بعظمة أمجاد مصر **قائلا** :

وملكنـــــا فالمـــــالكون عبيـــــد والبرايـــا بأســـرهم أســـراء....إلخ

وبعدها يتحدث عن أمجاد الفراعنة وقبورهم التى تدل على تقدمهم وحضارتهم ، ويذكر من هؤلاء (سيزوستريس – رمسيس – بنتاهور – قمبيز–

1 - راجع : د. محمد نجيب التلاوى : شعرية التناص ، دراسة ضمن مجموعات دراسات بعنوان صورة الحبيب بين المقدس والدنيوى في شعر عبد الله باشراحيل ، ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت عام 2005 ص141 وما بعدها .

2 - الشوقيات شرح وتعليق يحيى الشامى ط دار الفكر العربى 1996،ج1 ص 16.والقصيدة من ص16:29.

منفيس - كليوبترة إيزيس – أوزوريس – آبيس ...إلخ) ويذكر تضحية بنت فرعون (كرمز للفتاة الفرعونية) بحياتها من أجل الوطن عندما ألقت بنفسها في النيل من أجل أن يجرى النيل ، وهذه عادة قديمة تعبر عن معتقد هؤلاء لجريان النيل ،ثم يتحدث عن الإسكندر وحربه ،ودور مصر وموقف كليوبترة من هذه الحرب من أجل حقن الدماء ، وبعدها يسرد للأنبياء الذين قدسوا هذه المنطقة ، بداية من موسى(عليه السلام) ثم عيسى(عليه السلام) ثم النبى محمد(صلى الله عليه وسلم) وبعدها مجد الأيوبيين ، وينهى هذه الحوادث بما حققه أولاد محمد على خاصة الخديوى سعيد ، والخديوى عباس حلمى ، كل ذلك في أسلوب وسرد للأحداث ، في أسلوب تقرى يفتقر إلى ذلك الروح الشعرى الذى يترقرق في شعر شوقى الغنائى ، وقد أدرك شوقى هذا ، لذا أعلن في مقدمة منظومته،**فقال** :

حتـــــى أراد الله أن نظـــــمت مـــن ســـر الرجـــال مـــا اســـتعظمت
علمـــا بمـــا تبعـــث في الأحـــداث جلائـــل الأعمـــال والأحـــداث [1]

والقصيدة لا تعدو أن تكون نظما للأحداث أكثر من أن تكون إبداعا تتفجر فيه طاقة الخيال الذى يعطى الشعر مذاقا رائعا ، إضافة إلى الاستطراد ، وفرض رأيه على المتلقي بالإشادة بالترك ، وبأسرة محمد على ، وإن كان الأفضل أن يشيد بمحمد على وبابنه إبراهيم لما قدماه لمصر من نهضة علمية وعسكرية في حياتهما، لا بالخديوي سعيد وعباس حلمي كما فعل .

وحافظ إبراهيم ينظم مواقف بارزة في حياة عمر بن الخطاب تبرز لنا مآثره وفضائل إنسانية تمجد صاحبها ، ويقتدي بها ،وتبلغ القصيدة مائة وثمانية وثمانين

1 - راجع د.على عشرى زايد: استدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربى المعاصر، منشورات المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، عام 1978. ص66.

بيتا ، تبدأ بإهداء أربعة أبيات ، وخاتمة خمسة أبيات ، وقد أنشد هذه المطولة في الحفل الذى أقيم بمدرج وزارة المعارف بدرب الجماميز ، مساء الجمعة 8 فبراير عام 1918، **يقول في افتتاحها** :

حسب القوافي وحسبى حين ألقيها

أنى إلى ساحة الفاروق أهديها [1]

وبعدها فقرة بعنوان مقتل عمر (أربعة عشر بيتا) ينظم فيها لقتل أبى لؤلؤة المجوسى غلام المغيرة بن شعبة له ، لعدم استجابة عمر لشكوته من ارتفاع الخراج عليه ، **يستهلها بقوله** :

مولى المغيرة لا جادتك غادية من رحمة الله ما جادت غواديها

ثم فقرة بعنوان إسلام عمر (أحد عشر بيتا) ينظم لإسلامه إثر تلاوة آيات من سورة طه عليه ، فلان لها قلبه ، وبعدها فقرة بعنوان عمر وربيعة أبى بكر (أربعة عشر بيتا) ، وفيها عرض ليوم الثقيفة حين حزم عمر عملية البيعة لأبى بكر بعد وفاة الرسول (ﷺ) ومن نظمه للأحداث ،سرده لقول عمر عند سماعه نبأ موت الرسول : من قال إن محمدا قد مات قتلته بسيفي ، **يقول** :

تصيح : من قال نفس المصطفي قبضت

علوت هامته بالسيف أبريها....إلخ.

وبعدها يعرض في فقرة بعنوان (عمر وعلى) في خمسة أبيات ،وفيه يذكر لرفض على البيعة ، ولكن حزم عمر أنهى الموقف ، وهذه مغالطة فندها طه حسين في كتابه (الشيخان) وبعدها فقرة بعنوان (عمر وجبلة بن الأيهم) في أربعة أبيات ، وفيها يعرض لإصرار عمر على القصاص من جبلة بن الأيهم

1 - ديوان حافظ ج1 ص77 والقصيدة من ص77:97.

(فتى من غسان) الذى أسلم ، وجاء لأداء فريضة الحج ، وعندما وطأ أعرابى ثوبه ، لطمه جبلة فهشم أنفه فأصر عمر على القصاص منه ، فهرب جبلة وارتد بعدها .

وبعدها يعرض في فقرة بعنوان (عمر وأبو سفيان) في تسعة أبيات ، وفيها ينظم لموقف عمر من إخفاء أبى سفيان لمال أرسله معاوية من الشام ،لأنه من مال خزينة المسلمين ، وبعدها يعرض في فقرة بعنوان (عمر وخالد بن الوليد) في تسعة وعشرين بيتا ، وفيها يعرض لعزل عمر بن الخطاب لخالد بن الوليد حتى لا يفتن الناس به ، ولقتله مالك بن نويرة وزواجه من امرأته ،ويشيد بتقبل خالد لعزله مما يدلل على تمسكه بقيم الإسلام التى ينبغى الالتزام بها ، **يقول** :

واستقبل العزل في إبان سطوته ومجده مستريح النفس هاديها

وبعدها يعرض في فقرة بعنوان (عمر وولده عبد الله) في ثمانية أبيات ، وفيها يعرض لأخذ عمر نوق لعبد الله ابنه ، لشكه أنه أشبعها من بيت مال المسلمين ، وبعدها يعرض في فقرة بعنوان (عمر ونصر بن حجاج) في تسعة أبيات، وفيها ينظم لإخراج عمر لنصر بن الحجاج مخافة من فتنة النساء به ، وبعدها يعرض في فقرة بعنوان (عمر ورسول كسرى) في سبعة أبيات، يعرض فيها لاندهاش رسول كسرى لما وجده نائما أمام بيته المتواضع الذى لا يزيد مكانة عن بيوت المسلمين ، فقال : حكمت فعدلت فنمت يا عمر ، **يقول في آخر بيت** :

أمنت لما أقمت العدل بينهم فنمت نوم قرير العين هانيها

وبعدها يعرض في فقرة بعنوان (عمر والشورى) في ثمانية أبيات ، وفيها يشيد باتخاذ عمر لمبدأ الشورى ، **خاتما الفقرة ببيت حكمى** :

رأى الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها

وبعدها يعرض في فقرة بعنوان (مثال من زهده) في سبعة أبيات ، وبعدها يعرض في فقرة بعنوان (مثال من رحمته) في أربعة أبيات ، وبعدها يعرض في فقرة بعنوان (مثال من تقشفه وورعه) في خمسة عشر بيتا ، ويذكر فيه رفضه لامرأته شراء الحلوى لحاجة بيت المال لهذا المال ، **فائلا** :

ما زاد قوتنا فالمسلمون به أولى فقومى لبيت المال رديها

وبعدها يعرض في فقرة بعنوان (مثال من هيبته) في ستة عشر بيتا ، لمواقف من هيبته في الجاهلية والإسلام ، وبعدها يعرض في فقرة بعنوان (مثال من رجوعه إلى الحقّ) في أحد عشر بيتا ، لموقف حدث من عمر عندما تلصص على بعض شاربى الخمر ، وبدخوله البيت عليهم بطريقة غير مشروعة ، ورغم خطأ هؤلاء راجعوه ، فاعترف بخطئه ،وبعدها يعرض في فقرة بعنوان (عمر وشجرة الرضوان) في بيتين عرض فيهما لقطع عمر شجرة بيعة الرضوان حتى لا يفتن الناس بها ، لحدوث البيعة تحتها ، وأخيرا الخاتمة في خمسة أبيات ، **مبينا العبرة من سرد هذه المناقب في تلك السيرة فائلا** :

هذى مناقبه في عهد دولته للشاهدين وللأعقاب أحكيها ...إلخ .

وأحمد محرم في ديوانه مجد الإسلام ،أو ما أطلق عليه بعضهم الإلياذة الإسلامية،ينظم أحداث الدعوة الإسلامية، ممهدا بفترة التخبط التى مرت بها هذه المنطقة قبل مجيء البعثة المحمدية ، ثم مجيء محمد (ﷺ) بدعوته السامية، وقد قسم عمله إلى فصول، وكثيرا ما يقدم للفصل بقطعة نثرية يوضح فيها موضوع القصيدة التالية، سواء اتصلت بغزوة،أوحادثة من حوادث السيرة الذكية، ولم يقص أحمد محرم كل وقائع الرسول وغرواته ، فقد اختار أهمها مثل غزوة بدر الكبرى ، وغزوة أحد ، وبنى النضير ،ودومة الجندل ،وبنى قريظة ، والخندق ، تلك الغزوات

التى يلمع وميضها في جبهة الإسلام ،وإن كان عنوان العمل (الإلياذة) وموضوعه (الغزوات أى الشعر القصصى) يتفقان مع إلياذة هوميروس،ولكنهما يختلفان، فإلياذة هوميروس تجنح إلى الخيال البعيد ، وتعيشّنا فترة طويلة من صراع الآلهة واختلافهم ،في عمل أدبى يغلب عليه الفانتازيا ، على خلاف عمل أحمد محرم ، الذى ينظم وقائع حقيقية حدثت في عالم الواقع ، ولم يضف عليها من الخيال البعيد الجامح مثلما فعل هوميروس ،إن هوميروس صنع عملا خياليا خلاقا، ولكن أحمد محرم نظم تاريخا في وزن شعرى ، **ونقف على نموذج من شعر أحمد محرم في غزوة بدر** :

ما للنفوس على العماية تجنح ... أتظن أن السيف عنها يصفح
داويت بالحسنى فلجّ فسادها ... ولديك إن شئت الدواءالأصلح
الإذن جاء فقل لقومك أقبلوا ... بالبيض برق والصوافن تضبح
أفيطمع الكفار أن لا يؤخذوا ... بل غرهم حلم يمد ويفسح
أمنوا نكالك فاستبد طغاتهم ... أفكنت إذ تزجى الزواجر تمزج
اليوم توردها الدماء فترتوى ... وتردها نشوى المتون فتفرح
المشركون عموا وأنت موكل ... بالشرك يمحى والعماية تمسح
خذهم ببأسك لا ترعك جموعهم ... فلأنت إن وزنوا الكتائب أرجح

ضلوا السبيل وفي يمينك ساطع يهدى النفوس لإلى التى هى أوضح ...إلخ.

ثم يتحدث عن أبى سفيان وذهابه في قافلة للتجارة ، واعتراض المسلمين له، ورغم نجاة القافلة إلا أن سفيان رفض ذلك واستنفر قريشا للقتال، وصف أحمد محرم استعداد قريش للحرب وخروج النساء معهم يضربن على المزاهر لحثّ **أزواجهن على النصر** :

نفروا يريدون القتال وغرّهم ... عبث اللواتى في الهوادج تنبح

عنّـــت بهجـــو المســـلمين وإنهـــا لأضـــل مـــن يهجـــو الرجـــال ويمـــدح
الضـــاربات علـــى الـــدفوف فـــإن هـــم ضـــربوا الطلـــى فالنادبـــات النّـــوح

ويصف أحمد محرم تنظيم الجيوش والالتحام بالعدو بعد المنازلات الفردية ومقتل عتبة وشيبة ابنى ربيعة، وعرش الرسول (ﷺ) **ومن حوله الذين يذودون عن عرشه** :

جـــدّ الـــبلاء وهـــبّ إعصـــار الـــردى يرمـــى بأبطـــال الـــوغى ويطـــوح
نظـــر النبـــى فضـــج يـــدعو ربـــه لا هـــمّ نصـــرك إننـــا لنـــكدح
تلـــك العصـــابة مـــا لـــدينك غيرهـــا إن شـــدّ عـــاد أو أغـــار مجلـــح
لا هـــم إن تهلـــك فمـــا لـــك عابـــد يغـــدو علـــى الغـــبراء أو يـــتروح

فالشاعر يلتزم بالنص التراثى حتى في قول الرسول (ﷺ)اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد في الأرض أبدا ، ويستمر في سرده الدقيق لأسماء المقاتلين وللحظات القتال ، إلى أن أنزل الله كتيبة من الملائكة لتنصر المسلمين ، وتضرب الكفار فوق الأعناق ، **وتضرب كل بنان** :

الله أرســـل في الســـحاب كتيبـــة تهفـــو كمـــا هفـــت الـــبروق اللمـــح
جبريـــل يضـــرب والملائـــك وبنـــانهم صـــفّ تـــرض بـــه الصـــفوف وترضـــخ
للقـــوم في أعنـــاقهم وبنانـــهم نـــار تريـــك الـــداء كـــيف يـــبرح

وما لبث أن فر الكفار ووراءهم تترنح جثث قتلاهم :

أودى بعتبـــة والوليـــد وشـــيبة وأميـــة القـــدر الـــذى لا يـــدرح
وهـــوى أبـــو جهـــل ونوفـــل وارعـــوى بعـــد اللجـــاج الفـــاحش المتـــوقح

وانتهت المعركة بالنصر للمسلمين والخزى لأعداء الله ، **يصور أحمد محرم صدى الواقعة في مكة** :

ما أكثر الباكين ملء جفونهم للجمع بالبيض البواتر يصدع
جزّ النساء شعورهن وغودرت للحزن منهن الدموع الهمع
رجعن مكروه العويل على أسى والبيت يشدو والحطيم يرجع
والمسلمون بنعمة من ربهم فها لكل موحد منا مستمتع
الله أكبر لا مرد لحكمه هو ربنا وإليه منا المرجع

تنتهى الغزوة في إلياذة أحمد محرم وتتبعها غزوات أخرى على هذا النهج من النظم الدقيق الذى يلتزم الدقة ،فأحمد محرم " لا يكتب ملحمة كالملحمة التى كتب فيها هوميروس إلياذته ، وإنما يكتب أو قل ينظم سيرة الرسول (ﷺ) وفرق بين نظم السرد والشعر القصصى ، ذلك لأن الأول عمل آلى ، فالشاعر يقرأ التاريخ ، ثم يحوله شعرا ، أو قل يحوله نظما ،وهو لذلك لا يعالج حربا ولا ملحمة بعينها ، وإنما عاج سيرة مطولة فيها الحرب وفيها غير الحرب "[1]

والشاعر عبد الله باشراحيل يقتدى بالشعراء السابقين ،فينظم ديوانا بأكمله (ديوان أقمار مكة) يعرض فيه لحياة الرسول (ﷺ) في قصيدة (سيد الخلق) ولمآثر أبى بكر، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وأسامة بن زيد في قصائد بعنوان هذه الأسماء،ويبدأ الديوان بقصيدة (مالك الملك) وفيها ابتهال وتوسل وثناء على الله سبحانه وتعالى ، **كمقدمة لبعينه على هذا العمل** :

يارب مجدك عطّر الأعطارا وسناك إشراق جلا الأنظارا
من غير فضلك لا تعزّ حياتنا أنت العظيم تقدر الأقدارا

1 - د. شوقى ضيف :دراسات فى الشعر العربى المعاصر ط 8. دار المعارف د.ت ص54. وراجع الدراسة التى أعدها المؤلف في كتابه ،بعنوان الإلياذة الإسلامية من ص 44 وما بعدها.

نــدعوك باسمــك يــا كــريم فمــدنا من نورك الوضاء كى نختارا....إلخ [1]

ويلاحـظ علـى الشـاعر أنـه أطـال في عـرض حيـاة ومـآثر الرسـول (ﷺ) يثنى عليه ثناء وفيرا في قصيدة سيد الخلق :

ســيد الخلــق والمقــام جليــل إنــك تهــدى ولســنا والدليــل

الأزاهــير في رحابــك تنــدى ودمــوع علــى ثــراك تسيــل

تقتفــي النــور مــن ســناك يمنــى موهــن القلــب والأمــانــى نــزول [2]

ويكاد يعرض بردة لحياته الأولى سردا دقيقا يقول :

ســيرة الطفــل يــوم مــات أبــوه قبــل مــيلاده ومــات الخلــيل

ووليــد الــرؤى وآيــة حــسن صــاغها الله فهــو خلــق جميــل

ومضــى (جــده) يســاقيه حــبا وهــو منــه الحفيــد والمأمــول

قضــت الأم نحبهــا وتــوارت وإذا اليــتم جــائر يستطــيل

بعــد أن مــات جــده قــد رعــاه عمــه والمــدى إليــه يجــيل

فغــدا الحــب والرضــى والأمــانى وســقاه مــن النــدى السلســبيل

وبعدها يعرض لصفاته (الصدق والأمانة) لذا كان مؤهلا لحمل الرسالة فتنبأ بذلك بحيرى الكاهن :

يبتنــى مــن ســناه فضــلا وعزمــا و(بحــيرى) يقــول هــذا الرســول

ويعرض بعدها موت عمه وزوجته خديجة :

وقضــى عمــه الحبيــب وأودى أى عــبء علــى الرســول ثقيــل

فقــد الحــب يــا خديجــة قلــبا يــوم أن غبــت واســتدام الأفــول

---

1 - الأعمال الشعرية : عبد الله باشراحيل ط 1المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت عام 2003 ج2 ديوان أقمار مكة ص552.

2 - م . نفسه ص 557.والقصيدة من ص 568: 557.

وبعدها يعرض لرحلته (ﷺ) إلى الطائف ، ومعراجه ،وهجرته ، ونوم على (رضي الله عنه) في فراشه ، ودوله غار ثور ، ووصوله المدينة المنورة ، وبناء مسجد قباء ، وغزواته ، **فقول في غزوة الخندق** :

يا لعصف الرياح وهي ضوار وخيام تناثرت وخيول
وجنود الإله رعب تبدى يحصد البغي والبغاة ذهول

إلى فتح مكة ووفاته ،كل ذلك في سرد رائق جميل فيه من سلاسة الأداء ، ونصاعة اللغة الشعرية التي لاتحتاج إلى قواميس ويختتم القصيدة على سنن **القدماء بالسلام والدعاء** :

فسلام على الرسول ندى وصلاة على النبي تطول

وفي قصيدة أبي بكر الصديق يعرض لمآثره وإنجازاته ، (الصدّيق – ثاني اثنين في الغار- عدله – ثاني الخلفاء – زهده فتوحاته) [1] ويختم القصيدة ببيان الغرض **من نظم هذه الأحداث** :

تاريخنا بعض أسماء نرددها مثل الفراقد بالأضواء تغشانا

وفي قصيدة عمر بن الخطاب [2] يقف على عدله ،ومبدأ الشورى عنده ، واستشهاده ليجعل استشهاده **من رضا المولى عليه** :

يا طعنة الغدر والفاروق يرمقها قضى الشهيد ولما ينفع الحذر
رضوان ربك بك أسمى ما سعيت له فانعم بجنات عدن طبت يا عمر

وفي قصيدة عثمان بن عفان [3] يعرض فيها لمناقبه ، صهر رسول الله (ﷺ) وجامع القرآن الكريم ومجهز الجيوش للفتوحات ، **يقول** :

---

1 - راجع القصيدة : م . نفسه من ص 569:571.
2 - راجع القصيدة : م . نفسه من ص 572:574.
3 - راجع القصيدة : م . نفسه ص 575:577.

يـا صـهر خلـق عبـاد الله كلـهم مـن كـان يعـرف بـالنورين مزدانـا
يـا مـن وعيـت سـنى القـرآن تجمعـه تصـونه في عيـون الـدهر فرقانـا
ويـا مجهـز جـيش العشـرة انطلقـت فلولـه في رحـاب الأرض فرسـانا

ومن مآثره وصفاته النضرة – أيضا - الزهد والإنفاق في سبيل الله بسخاء، وفي التعبير بهذه السمات يتجلى الجمال الفني في الصياغة :

زهـدت إلا مـن التقـوى وأكرمهـا صـدق نمـاك بـه الـديان مـولانا
وأنـت بـالنور تسـتهدى بصـائره وأنت للدهر تبنى ما عـلا شـانا...إلخ.

وفي قصـيدة علـى بـن أبـى طالـب [1] يعـدد لمناقـب علـى (رضي الله عنه) ربيـب النبي (ﷺ) زوج ابنتـه ،شـجاعته ، أبـو الحسين ، رابـع الخلفـاء ،رجاحـة عقلـه ، وفتواه ، ليختم القصيدة بقوله :

وصـل ربـى علـى (طـه) وعترتـه هـو الحبيـب ونعـم الأهـل والآل

وأم المـؤمنين عائشـة (رضي الله عنها) في قصـيدة بهـذا العنـوان [2]، يعـدد الشـاعر لمناقبهـا وفضـائلها :زوجـة نبينـا وأمنـا ، وأحـب النـاس إلى الرسـول (ﷺ) وابنـة الصديق ، ومتعلمة وفقيهة للنساء ، يقول :

أمنـا تلـك وأم المؤمنـينا زوجـة المحمـود أخلاقـا ودينـا
يـا أحـب النـاس بـالمبعوث تعلـو و أشـد الخلـق حرصـا ويقينـا
يـا ابنـة الصـديق مـأثور العطايـا قـد زكـا نفسـا وبـرا وشـؤونا
نصـف ديـن الخلـق منهـا نجتليـه إنـه أمـر مـن المختـار فينـا ....إلخ

1 - راجع القصيدة : م . نفسه ص580:587.
2 - راجع القصيدة : م . نفسه ص 581:582.

وأسـامة بـن زيـد [1] فـارس وقائـد الجـيش رغـم حداثـة سـنه ومجاهـد في سبيل الله ، ضرب المثل وأصبح قدوة لنل ، ونتمنى أن نكون مثله ، **بقول** :

قـــاد للإســـلام حـــتفا وســـقى مـــنهم حـــسامه

ليتنـــا مثـــل أســـامة كلمـــا هـــز العـــمامة

ورغـم أن الشـاعر يسـتخدم في أشـعاره هـذه المعجـم الـديني ، مثـل (الـرحيم ، العظيم ، الكـريم ،الخلـق ، المقـام، قـاب قوسـين ، مالـك الملـك ، الخشـوع ، الإيمـان ، الجهاد ، الهدى ، الأنام ، القيامة ، الجنة ، التقى ، العبادة ، الصلاة ...إلخ) ولكن لم يستطع أن يفعل نصا من خلال هذا التناص التاريخي والديني ،ليخلق عملا جديدا في دلالاتـه وقيمـه الفنيـة لارتباطـه بـالموروث ارتباطـا ناسـخا ، لا موظفـا لـه ، ولا مفجـرا لطاقتـه الفنيـة والإيحائيـة ، في عمـل فنـي جديـد في معطياتـه الفنيـة والدلالية.

1 - راجع قصيدة أسامة : م . نفسه ص 587:588.

obeikan.com

-6-

صور التناص السابقة - التى عرضنا لها - تفتقد تفاعل التناص كقيمة فنية ، في استحضار نص سابق ، ودمجه في نصوص عصرية ، من أجل بنية فنية جديدة ، وبذلك يفتقد التناص قيمته الفنية التى نظر له المنظرون ، فـ " التفاعل النصى نزعة حوارية ، ويكون النص الجديد نصا بؤريا ممركزا .....يعول على التفاعل النصى إنتاج النصوص ، وإنتاج القوالب الجاهزة ، التى تصبح بدورها مضاعفة ، تتوالد عنها قوالب أخرى "[1] فالتناص خلق نص من نصوص أخرى ،بطريق تفاعلية ، تخفي ملامح النص السابق ، وتنشأ نصا جديدا ، قد يتضمن بعض ملامح النص السابق ، ولكن له ملامحه المميزة ،والتى من خلالها يتكون نص ذو نزعة تأويلية ، لأنه يجنح إلى الغموض الفنى ، لتصبح العلاقة بين هذا النص والنصوص الأخرى علاقة جدلية ، تقوم على الاستدعاء ، والتحويل والإحلال وإنتاج نص جديد.

وتتوالى صور أخرى للتناص في شعر مدرسة الإحياء ، دون تفعيل للنص القديم ودمجه في النص الحديث لقيمة فنية، لنجد شرحا للنص القديم ، **كما فعل شوقى حين شرح شوقى قول أبى نواس :**

يا ويح أهلى أبلى بين أعينهم على الفراش و لا يدرون ما دائى

فقال (شوقى):

يا ويح أهلى أبلى بين أعينهم ويدرج الموت في جسمى وأعضائى

وينظرون لجنب لا هدوء له على الفراش و لا يدرون ما دائى [2]

أونقدا للنص التراثى برؤية جديدة للشاعر، كما فعل شوقى – أيضا – **في معارضة أبى العلاء المعرى في قوله :**

---

1 - عز الدين المناصرة : علم التناص المقارن ص170.

2 - الشوقيات شرح وتعليق د . يحيى شامى ط 1 دار الفكر العربى بيروت عام 1996 ج1 ص60:59.

هـــذا جنـــاه أبـــى علـــى ومـــا جنيـــت علـــى أحـــد

قال (شوقى) منافضا هذا القول :

بينـــى وبـــين أبـــى العـــلاء قضـــية في الـــبرّ أســـتدعى لهـــا الحكمـــاء

هـــو قـــد رأى نعمـــى أبيـــه جنايـــة وأرى الجنايـــة مـــن أبـــى النعمـــاء [1]

ومنه قول البارودى :

كـــم غـــادر الشـــعراء مـــن مـــتردم ولـــرب تـــال بـــذّ شـــأو مقـــدّم [2]

مأخوذ من قول عنترة :

هـــل غـــادر الشـــعراء مـــن مـــتردم أم هـــل عرفـــت الـــدار بعـــد تـــوهم

فقد غير في الشطر الثانى ، وقال قد يسبق التالى السابق في الإتيان بالجديد ، وربما يكون في كلام البارودى تعريض به وبغيره من الشعراء الذين عارضوا الشعراء القدماء ، لغرض إظهار تفوقهم فنيا عليهم .

وأقبح السرقات عند الناقد العربى القديم النسخ ، وبمفهوم النقد الحديث نقل الشاعر لنص آخر إلى مجرى نصه ،بدون غاية فنية ،وفيه يضيع قيمة التناص الفنية ، ونجد كثيرا من الأمثلة في شعر شعراء مدرسة الإحياء على سبيل الإشارة ، سواء بإشارتهم إلى أسماء الشعراء القدماء ،أو لبعض أشعارهم قديما وحديثا ، لا لخلق بنية نصية جديدة تتمتع بجمالها الفنى، **ومن هذه الأمثلة قول على الجارم في رثاء إسماعيل صبرى :**

عبثـــت "بالوليـــد" ثـــم أرتـــه منـــه أنقـــى معنـــى وأقـــوم قـــيلا

لـــو وعاهـــا مـــا اهتـــز ينـــشد يومـــا (ذاك وادى الأراك فـــاحبس قلـــيلا)

(قف مشوقا أو مسـعدا أو حزينا أو معينـا أو عاذرا أو عذولا)

---

1 - الشوقيات ج 1 ص 61.

2 - ديوان البارودى ج3 ص485.

هبطت حكـمة البـيان عليـه فاذكروا في الكتاب إسماعيلا [1]

فالشاعر يقتبس مطلع لقصيدة البحترى ذاك وادى الأراك فاحبس قليلا إلخ .

ونجد في شعرهم الإشارة لشعر بعضهم في قصائدهم ، لا لغاية فنية ،ولكن لمجرد الإشارة ، وإن هدف الشاعر في نصه من هذه الإشارات مدح الشاعر الذى يشير إلى هذه القصائد ،كنموذج لشعره الجيد، بيد أن هذه الإشارة ليس لها من القيمة الفنية، التى تثرى النص ، بخلق نص جديد يحمل جينات تكونيية حديثة ، **منه قول حافظ في تهنئة عباس الثانى بمناسبة عيد الأضحى** :

صـدق الـذى قـد قـال فيـه وحسـبه أن الزمـان لمـا يقـول مصـدق :

(لـك مصـر ماضـيها وحاضـرها معـا ولـك الغـد المتحـتم المتحـقق)

والبيت الثانى من قصيدة لإسماعيل صبرى للخديوى في هذه المناسبة أيضا[2].

وفي قصيدة لحافظ أرسلها لشوقى بمناسبة تتويجه أميرا للشعراء يضمنها بأشعار من شعر شوقى ، **يقول** :

1 – أ(من أى عهـد في القـرى) قـد تفجـرت

ينـابيع هـذا الفكـر أم (أخـت يوشـع)

2– وفي (تـوت) مـا أعيـا ابتكـار موفـق

وفي (ناشـىء في الـورد) إلهـام مبـدع

3 – أسـالت (سـلا قلبـى) شـئونى تذكـرا

كمـا نثـرت (ريـم علـى القـاع) أدمـع

4 – و(سـل يلـذرا) إنـى رأيـت جـمالها

علـى الـدهر قـد أنسـى جمـال (المقنـع)

---

1 - راجع : ديوان على الجارم ط3 الدار المصرية اللبنانية عام 1997ج1 ص69 .

2 - ديوان حافظ ج1 ص43.وديوان إسماعيل صبرى ص 58.

openkan.com

5– أطلت علينا (أخت أندلس) بما أطلت فكانت للنهى خير مشرع

6 – وفي نسج (ضداح) أتيت بآية من السهل لانتقاد (لابن المقفع)

7 – ورائع وصف في (أبى الهول) سقته

كبستان نور قبل رعيك ما رعى

8 – وفي (انظر إلى الأقمار) زفرة واجد

وأنه مقروح الفؤاد في جوف مصنع

9 – وسينية (للبحترى) نسختها

بسينية قد أخرست كل مدعى [1]

وفي هذه الأبيات إشارة إلى جمال شعر شوقى ، من خلال هذه النماذج من قصائد ه الشعرية، **ففي البيت الأول إشارة إلى قصيدة شوقى في النيل التى مفتتحها** :

من أى عهد في القرى تتدفق ؟! وبأى كف في البرية تغدق ؟!

والبيت الثانى إشارة إلى قول شوقى في قصيدة توت عنخ آمون مفتتحها:

قفي يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الغابرينا

وفي الشطر الثانى من البيت نفسه إشارة إلى قصيدة شوقى ، **في المنتحرين لرسوبهم في الامتحانات وأولها** :

ناشىء في الورد من أيامه حسبه الله أبا لورد عثر

وفي البيت الثالث في الشطر الأول يشير بقوله (سلا قلبى) إلى قصيدة لشوقى قالها في استقباله لمصر عند عودته من منفاه بالأندلس ، **أولها** :

سلا قلبى غداة سلا وتابا لعل على الجمال له عتابا

1 - ديوان حافظ إبراهيم ج1 ص122:125.

وبقوله في الشطر الثانى من البيت نفسه (ريم على القاع) إشارة إلى قصيدة له في مدح النبى (ﷺ) والتى سماها نهج البردة ، **وأولها** :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمى في الأشهر الحرم

وفي البيت الرابع في قوله (سل يلذرا) يشير إلى قصيدة شوقى في خلع السلطان عبد الحميد التى سماها عبرة الدهر ، **والتى أولها** :

سل يلذرا ذات القصور هل جاءها نبأ البدور؟!

ويريد بالمقنع في الشطر الثانى(المقنع الكندى) وهو لقب غلب عليه لأنه كان أحسن الناس وجها ، فكان لا يسير إلا مقنعا ، واسمه محمد بن مظفر بن عمير، وهو شاعر مقل من شعراء العصر الأموى .

وفي البيت الخامس في قوله (أخت أندلس) إشارة إلى قصيدة شوقى في رثاء مدينة أدرنة ، وهى من أعرق المدن العثمانية ، وكانت قد سقطت في يد البلغار في الحرب البلقانية ، **وأول القصيدة** :

يا أخت أندلس عليك سلام هوت الخلافة عنك والإسلام

وفي قوله (صدّاح) في أول البيت السادس إشارة إلى قول شوقى في تفضيل حجاب المرأة على سفورها ، **في قصيدة يخاطب بها ملك حفنى ناصف (باحثة البادية) أولها** :

صدّاح يا ملك الكناريا أمير البلبل

وفي قوله ابن المقفع إشارة إلى الكاتب المعروف في العصر العباسى ، وكان كما ورد في بعض الروايات(إباحيا) ويقال إن من أسباب قتله إباحيته وزندقته .

وفي البيت السابع (أبى الهول) إشارة إلى قصيدة شوقى في وصف أبى الهول، **وأولها** :

أبا الهول طال عليك العصر وبلغت في الأرض أقصى العمر

وفي قوله في البيت الثامن (انظر إلى الأقمار) يشير إلى قصيدة لشوقى في رثاء فتحى ونورى الطيارين العثمانيين ، وكانا قد سقطت بهما طائرتهما أثناء رحلتهما إلى مصر قبل نشوب الحرب العظمى، **وأولها**:

انظر إلى الأقمار كيف تزول وإلى وجوه السعد كيف تحول

وفي قوله في البيت التاسع (وسينية البحترى)**إشارة إلى قصيدة شوقى التى عارض فيها البحترى في سينيته:**

صنت نفسى عما يدنس نفسى وترفعت عن جدا كل جبس

وقد وصف فيها البحترى إيوان كسرى ، وعارضها شوقى بقصيدة عرض فيها لبعده عن بلاده في منفاه بالأندلس ،**والتى أولها** :

اختلاف النهار والليل ينسى اذكرا لى الصبا وأيام أنسى

ومنه قول على الجارم في قصيدة الجامعة العربية :

دعوت بيانى أن يفيض فأسعدا ونأديت شعرى أن يجيب فغردا

من قول البارودى :

لما وقفنا للوداع وأسبلت مدامعنا فوق الترائب كالمزن

أهبت بصبرى أن يعود فعزنى ونأديت حلمى أن يثوب فلم يغن [1]

ومن التناص عند على الجارم قوله في قصيدة من شاعر لشاعر :

وترجع بغداد بعد الفناء تحدث للناس أخبارها [2]

---

1 - راجع : ديوان على الجارم ج1 ص84. وديوان البارودى ج4 ص5و6

2 - ديوان على الجارم ج1 ص98. متأثرا بقوله تعالى يومئذ تحدث أخبارها (سورة الزلزلة الآية 4)

obeikan.com

-7-

التناص عند مدرسة الإحياء لم يؤت ثماره الفنية لأنه لم يحقق الغاية من التناص في دمج نصوص أخرى بمجرى النص ، سواء أأشار إليها الشاعر أم لم يشر إليها؟ وإنما جرى في الغالب حول محاكاة القالب الفنى القديم،وتقليده التقليد الذى يأخذ شكل النسخ، لا لخلق نص شعرى حديث بمقومات فنية حديثة، أو بمعارضة نص قديم بقصيدة حديثة من أجل إظهار تفوق الشاعر الحديث ، وتجاوزه للشاعر القديم في إدراك معانى لم يفطن إليها هذا الشاعر القديم ، وفي القليل منها جاء التناص إيجابيا في خلق معنى جديد من معنى شعرى قديم ، دون الإشارة إلى صاحب النص السابق ، ولكن ذهب جمال هذا النوع دوران المعنى في فلك بيت شعرى، لا لخلق نص فنى متكامل ، وجاء هذا النوع كنوع من ترسب ثقافات سابقة في ذهن الشعر الحدث ، نتيجة إطلاعه وارتباطه بالتراث العربى القديم .

لا ندين الشعر العربى – في هذه المرحلة - من حياته الفنية ، التي جاء بعث الشعر في صورته التراثية المشرقة ، لضرورة فنية اقتضتها ظروفها التاريخية والفكرية والثقافية ، لنطبق فكرا حديثا عليه ، ونعلم أن مصطلح التناص ظهر كمصطلح فني في الستينيات ، ولكن ما ذكرناه كان نتيجة دراسة موضوعية أقررنا إيجابياتها وسلبياتها ، ألم يقل أندريه شينيه عن الكلاسيكية الجديدة في أوربا . والتى تقابل عندنا شعر مدرسة الإحياء – إن هدفها التعبير عن أفكار جديدة في ثوب القديم ، هكذا كان نهج شعراء مدرسة الإحياء ، لتكون إرهاصا لحركات التجديد في شعرنا العربى الحديث – كما مر بنا – على يد مدرسة الديوان ، ومدرسة أبولو ومدرسة المهجر ثم شعراء قصيدة التفعيلة ،أو شعراء الشعر الحر كما يحلو لبعضهم هذه التسمية .